الفصـــل الثالـث

الصهيونية البروتستانتية

كانت العصور الوسطى خصوصًا القرن الرابع عشر والخامس عشر عنيفة بالنسبة للمعتقد الديني وللطبقة العاملة وحيث بدأت تتشكل القوميات، لقد كان لتدخل السلطة الدينية في السياسة وتدخل السلطة الزمنية في الدين؛ أثر كبير فيما آلت إليه الأمور من ناحية قبول المجتمع للإصلاحات الدينية، بسبب حاجة الناس إلى نظام اقتصادي أكثر راحة من السلطة الدينية التي كانت قيودها تسبب الكثير من عدم الاستقرار في المجتمعات الأوروبية، لهذا إن كثيرًا من الباحثين وأهل التنظير وحتى يومنا هذا، حائرين أو متسائلين.. هل الثورة البروتستانتينية التي قادتها أفكار "مارتن لوثر" هي التي فرضت الإصلاحات الدينية أم أن التداعيات الاقتصادية هي التي خلقت ثورة البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكية!

Martin Luther مارتن لوثر ١٤٨٣م – ١٥٤٦م

مهما كانت الإجابة على هذا السؤال، فإن البروتستانتينية بلا شك هي التي حجَّمت سلطة الكنيسة في المجتمع، وأعطت فكرًا تحرريًا للأفراد وللاقتصاد وبالتحديد للملكية الخاصة، وقد تكون البروتستانتينية هي من جعلت المجتمع يخطو خطوة إلى الأمام، وجعلت عجلة الاقتصاد تدور دورتها الأولى، فإذا بالاقتصاد ممثلاً

بانطلاق الثورة الصناعية يجعل البروتستانتينية مرجعًا ومتكأ لحرية الفرد وانطلاقه في ميادين الإبداع.

يعتبر المُصلح الديني "مارتن لوثر" الذي وُلد في مدينة "فتنبرج" بألمانيا سنة ١٤٨٣م هو من أسس المذهب البروتستانتي، تخرَّج لوثر من الجامعة سنة ١٥٠٥م ودخل الدير، في سنة ١٥٠٧م تم ترسيمه قسيسًا، عمل على تدريس الفلسفة في "جامعة فتنبرج" بألمانيا، سافر إلى روما سنة ١٥١١م وكان لتلك الرحلة أثر كبير في حياته فلما عاد من روما أصبح مُصلحًا للدين المسيحي.

في ذلك الوقت كان بابا روما في حاجة ماسة إلى المال فلم يجد وسيلة للحصول عليه إلا ببيع صكوك الغفران حيث كان يسوقها للناس لكي يغفر الله الذنوب لأقربائهم أو لمن يشاءون، غضب مارتن لوثر غضبًا شديدًا فأصدر بيانًا شديدًا ضد صكوك الغفران، ولصق البيان على باب كنيسة مدينة فتنبرج، في سنة ١٥١٧م فندت الكنيسة بيان مارتن لوثر وأحرقته أمام العامة فثار الطلاب في جامعة فتنبرج وأحرقوا بيان مندوب الكنيسة الراهب "تتسل".

عام ١٥١٨م تم استدعاء مارتن لوثر إلى روما من قبل البابا "لاون العاشر" وفشلت المفاوضات، بعد ذلك صار مارتن لوثر يهاجم البابوية كنظام مسيحي، في سنة ١٥٢٠م نشر لوثر نداءه الشهير إلى النبلاء المسيحيين في ألمانيا الذي هاجم فيه الكنيسة وسماه "الكنيسة الأسر البابلي"، فأصدر البابا "لاون العاشر" مرسومًا ضد مارتن لوثر به ٤١ تهمة، فما كان من لوثر إلا أن أحرق المرسوم علنًا أمام جمع غفير من الطلاب والعلماء والعامة، واشتد الهيجان في كل أنحاء ألمانيا مما جعل الإمبراطور يدعو إلى عقد مجمع في مدينة "فورمس" سنة ١٥٢١م، وأمر بمثول لوثر أمام المجمع، وصدر قرار المجمع بتدمير جميع كتب مارتن لوثر ونفيه خارج الإمبراطورية الألمانية.

في سنة ١٥٢٢م نشبت الاضطرابات من جديد فعاد لوثر إلى مدينته فتنبرج وأعلن سخطه على الطغاة، انشأ الكنيسة البروتستانتينية وأصدر مجموعة من

الإصلاحات، في سنة ١٥٣٤م صدر إنجيل لوثر، أمضى مارتن لوثر بقية حياته في الوعظ الديني وفي زيارة الكنائس التي أخذت بإصلاحاته.

بسبب الحد من سلطة رجال الدين ازداد حجم الملكيات الخاصة بعد أن تراجع دور الكنيسة، وراح المجتمع يموج بعوامل وحوافز الإنتاج الصناعي في ألمانيا أولاً وفي بقية الدول الأوروبية بعد ذلك، تكونت الشركات وأنشئت المصانع وكبرت الملكيات الصناعية، وظهرت الطبقة العاملة التي وحَّدتها المصلحة فتكونت النقابات العمالية، وأنشئت نقابات المُلاك ونقابات الصُنَّاع، ونقابات الموانى الخ، وعلى إثر ما أشرنا إليه، أخذ الصدام وجهًا آخر، وصار على أشده بين أصحاب المصانع وطبقة العمال الذين أسسوا النقابات للدفاع عن حقوقهم، مما أوجب أن يكوَّن نظام لفض النزاعات بين الطرفين فتأسست المحاكم المدنية، ووضعت القوانين والدساتير، وراحت تتشكل القوميات في أوروبا وهو ما أطلق عليه المؤرخون عصر القوميات، لكن دور الأفكار البروتستانتية لم يختفي، لأن الحد من سلطة الكنيسة الكاثوليكية لم يترك فراغًا روحيًا عند العامة، بل إن البروتستانت اعتمدوا على تفسير الكتاب المقدس، فكثرت الأفكار وكثرت تفسيرات الكتاب المقدس مما أضعف مركزية الكنيسة، خصوصًا وأن تفسيرات منطقية كانت تُشاع بين العامة وتفسيرات غير مقبولة مسيحيًا لأن بها بدع، فاختلطت الدنيا بالدين وشاع الانتقاء، وقاد هذا إلى إضعاف نفوذ الكنيسة الكاثوليكية بصفة عامة وكثرت التيارات البروتستانتية، وأدى هذا إلى ظهور حركات بروتستانتية ابتعدت في تطرفها وراحت تفسر اليهودية، فأوجدت كثيرًا من النبوءات والأساطير ونسبتها لليهودية الأولى، وأوجدت جسرًا بينها وبين بعض المتعصبين اليهود.

كان ضعف نفوذ الكنيسة بالنسبة لليهود مصدر غبطة وارتياح، وأنزلوا عن كاهلهم تُهم القديس بولس وتلاميذه من بعده، الذين أكَّدوا بأن شريعة بني إسرائيل سقطت بسقوط حامليها منذ أن بُعثروا في شتى الأنحاء، وأن أمة إسرائيل لن تعود، تنفس اليهود الأوروبيون الصعداء بعد انحسار دور الكنيسة،

ودعَّموا الصناعة والتجارة وقدَّموا القروض للأمراء وأصحاب الملكيات لكي تتعزز الروح القومية على حساب الدين، وهو ما أتاح لهم أن يعودوا إلى أنفسهم ويشرعوا في التفكير بأن يكون لهم انتماء وهوية كما للمجتمعات التي يعيشون فيها، فهم أيضًا أصحاب عقيدة مختلفة ولغة مختلفة فلماذا لا يبحثون لهم عن قومية مثل الآخرين.

في بداية الأمر مدح "مارتن لوثر" اليهود كونهم أبدوا ليونة خلال نقل أفكاره وبما ساهموا به من كسر لشوكة الكنيسة الكاثوليكية، فنجده قد مدحهم في كتابه الذي أصدره في عام ١٥٢٣م والذي سماه "المسيح ولد يهوديًا"، قال البعض إن مدح مارتن لوثر لليهود يعود إلى أنه كان يطمع في ضمهم إلى المسيحية، وحينما لم يستجيبوا ولم يجد آذان صاغية، راح ينتقدهم ويُحرض الناس ضدهم، ونلمس هذا في كتابه الذي صدر في سنة ١٥٤٣م "اليهود وأكاذيبهم"، الذي راح فيه يُحرض الأمراء الألمان ضد اليهود، ويطالب بعزلهم ومُصادرة أملاكهم وثرواتهم واقتلاعهم من ألمانيا وطردهم من البلاد إلى حيث جاءوا، وكان يرى أنهم يقبضون على ثروة الأمة بسبب الربا الذي كانوا يمارسونه كتجارة أساسية لهم فيسيل المال جاريًا بين أيديهم فيتكدس النقد عندهم ويصبح المجتمع كالبقرة الحلوب، في حين أن الألمان أموالهم مستثمرة في قطاعات الإنتاج المختلفة التي كلما احتاجت إلى تطوير لا مناص لها سوى أن تلجأ للمرابين اليهود لكي تستدين بقيمة فائدة يضع شروطها المرابي مالك المال.

لكن "الطهريون" وهم جماعة بروتستانتية متطرفة نشأت في انجلترا، طالبت في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالتمسك بأهداب الفضيلة، والفضيلة بالنسبة لهؤلاء هي العودة والالتزام بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس باعتبار التوراة هي الأساس وهي كتاب الله المعصوم، اعتبر الطهريون أن كل ما قاله حاخامات اليهود سابقًا وجميع الفتاوى والنبوءات اليهودية تاريخًا لا يقبل التأويل وأصبغوا عليه صفة التقديس، واعتبروا شريعة موسى قانونًا، جعلوا اللغة العبرية لغة القداس في الكنائس وأطلقوا الأسماء العبرية على أبنائهم وقدسوا السبت بل

وادخلوا اللغة العبرية في مدارسهم، لا شك بأن عودة الطهريون البروتستانت إلى إعادة توظيف العهد القديم سياسيًا فيما يتعلق باليهود قد جعله حاضنة للثقافة اليهودية التي أتت فيما بعد وتجسدت في الصهيونية الدينية ثم بالصهيونية السياسة.

انسجم الطهريون البروتستانت في بريطانيا مع الإسرائيليين القدامى فأضحت بريطانيا كما لو أنها إسرائيل البريطانية أو صهيون الإنجليزية، وذهب الطهريون إلى أبعد من ذلك، فطالبوا بأن تكون الشريعة الموسوية (نسبة للنبي موسى) ملزمة للأمراء المسيحيين، وجعل اللغة العبرية لغة تداول في المجتمع، وقوى من عضد هذا الانسجام بين الطهريين البروتستانت واليهود في انجلترا؛ تلاقي المصالح الاقتصادية، لأن كلاهما يناصران الرأسمالية الجديدة، مع أن الفرق بينهما هو أن الرأسمالية اليهودية منذ بداية تقلص مركزية الكنيسة الكاثوليكية في المجتمعات الأوروبية، اتجهت نحو السياسة والمضاربة ولبست ثوب عادات الرأسمالية المنبوذة، وأما البروتستانتية الطهرية فقد تبنت المشروع البرجوازي أو ما سمي فيما بعد اقتصاد السوق الذي يعتمد على المنافسة والعرض والطلب.

وعليه فما كاد القرن السابع عشر يهل حتى بدت ظاهرة السامية بفضل الطهريون وأمثالهم وعوامل أخرى، وصارت تفرض نفسها في الأوساط الشعبية وتكتسب اعتراف الجهات الرسمية، وبدى التعاطف مع اليهود ملموسًا بسبب ما عانوه في الماضي، وصار اليهود يتنشقون شيئًا من الكبرياء، ثم راحوا يستذكرون الآمال في تحقيق نبوءة العودة إلى صهيون، وبناء على ما ذكر وما آلت إليه الكنيسة المسيحية بسبب تراجع السلطة الدينية نتيجة للتفسيرات والفتاوى التي لا تتطابق مع بعضها، وبسبب بروز القوميات وازدهار الاقتصاد، فقد صار الناس في أوروبا يتحسسون إمكانية قبول التفسير اليهودي للعهد القديم الذي يشير إلى أن أرض كنعان هي أرضك يا إسرائيل، ولحق ذلك محاولة إقناع الباحثين في الجامعات والمؤسسات البحثية على أن كلمة إسرائيل التي وردت في التوراة تعني كل يهود العالم، وهو ما يعني أنه لا بد أن يكون لهؤلاء اليهود رابط سياسي بمعنى

القومية، وهكذا راحت تتشكل الأيديولوجية الصهيونية لكي تأخذ بُعدًا أو تعريفًا قوميًا للصهيونية، أو يمكن القول بإن ما صنعه هؤلاء قد ترك أثرًا فيما بعد حينما برز دور العلمانيين في صنع الصهيونية حينما جعلوا العامل الديني رافدًا لجذب جميع أنظار اليهود في العالم إلى مشروع احتلال فلسطين، ولتحقيق ذلك وجعله نبوءة مُلزمة، عمل على قبول تفسير ارتباط زمن نهاية العالم بعودة المسيح الثانية، وإن هذا مرتبط بعودة اليهود إلى فلسطين.

على إثر هذا شاع في ذلك الوقت بين العامة في المجتمعات الأوروبية، إن من مصلحة البشرية أن تساهم في عودة اليهود إلى فلسطين، ليس حبًا باليهود أنفسهم، بل حتى تكتمل الرسالة الإلهية تتمة لنبوءة الكتاب المقدس حيث يعود السيد المسيح إلى الأرض كملك لمدة ألف عام "الحكم الألفي" مُقيدًا إبليس، وشاع هذا في انجلترا خلال القرن السابع عشر، وهو ما استطاعه الطهريون البروتستانت.

أما الكنائس الأخرى في أوروبا فقد رفضت هذه التفسيرات والنبوءات، رفضته الكنيسة الكاثوليكية ورفضه التيار الرئيسي للكنيسة الإنجيلية، ورفضته الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وربط الرافضون الربط بين ما يدعيه الطهريون البروتستانت ومن هم على شاكلتهم من اليهود وغيرهم، رفضوا على أن اليهود شعب الله المختار بناء على التفسير الحرفي للتوراة، وقالوا إن المسيحية قد فتحت الباب للجميع، وأن الرب لا يميز بين الناس، ولا يفضل شعبًا علي شعب آخر.

في بداية القرن التاسع عشر عاد مرة أخرى إحياء الحركة الطهرية في بريطانيا وعلى إثر ذلك فقد تأسست جمعية لنشر المسيحية بين اليهود عام ١٨٠٧م، وصار الترويج لفكرة عودة اليهود إلى فلسطين، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت تلك الجمعية من دعوة اليهود إلى المسيحية إلى دعم الفكرة الصهيونية، بعد ذلك اهتمت فرنسا أيضًا باليهود، وكان نابليون أول زعيم دولة يدعو إلى

دولة يهودية في فلسطين نتيجة للقروض التي منحها اليهود للحكومة الفرنسية وتمويل حملة نابليون لاحتلال الشرق الأوسط بما في ذلك فلسطين.

شعار الصهيونية المسيحية

استمرت الدعوات بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر لتشجيع توطين اليهود في فلسطين وهو ما ساعد في خلق منظمة يهودية دينية سياسية أصبحت فيما بعد هي الصهيونية، ولكن أغنياء اليهود الأوروبيين في هذه المرة هم من راحوا يرفعون بنيانها بإخراج علماني أكثر من البعث الديني.

كان لسكان القارة الأمريكية دور هام في تقوية عضد الصهيونية، فمنذ أن وطأت أقدام الرجل الأوروبي الأبيض أراضي القارة الجديدة، راح يحتضن الأفكار الصهيونية، فكان لرجال الدين المسيحي في أمريكا فتاوى وادعاءات ليست أقل مما أتى به الطهريون في انجلترا، كلها بُنيت على أساس أن اليهود هم شعب الله المختار، وبميثاق الوعد الإلهي يرتبط اليهود بفلسطين والإيمان بعودة المسيح بقيام دولة اليهود لكي تبدأ الألفية.

يُستنتج مما سبق، بأن ما يطلق عليه "الصهيونية المسيحية" ليس له وجود في دائرة المنطق، فإذا كان قد استطاع من هم ربما أصلاً غير مسيحيين أو من خرجوا عن الكنيسة أن يشيعوا فتاوى ونبوءات، وأن يأخذوا التفسير الحرفي للتوراة أو أن يُستخدموا من قبل بعض اليهود الذين ساهموا كثيرًا في هذا، فإن

الحقيقة هي غير ذلك، والدليل أنه لا توجد صهيونية مسيحية مثلاً في الشرق، وأن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية ليستا على اتفاق مع الصهيونية، إذن ما كان ينشده الطهريون البروتستانت هو الالتحاف بالمسيحية والتستر للتعميم وأخذها ستارًا لخدمة التيار الصهيوني الذي كان يعمل في الظلام لخوفه في ذلك الوقت من المجاهرة بما كان يحلم في تحقيقه من أمجاد، إن من حسن التفكير أن نقول بإن ما يُسمى بالصهيونية المسيحية ليس له وجود على أرض الواقع، إلا إذا كان من يُطلق عليهم الناس بالمسيحيين الصهاينة هم ليسوا مسيحيين، فقد يكونوا من الفرق التي خرجت عن المسيحية أو هم حتى من فرق تمسحت بالمسيحية وليس لها أصول مسيحية، كأن تكون من اختراع دهاقنة الصهيونية مثل شهود يهوه والمورمون وغيرهما.

إن كثيرًا من النخب البحثية العربية، ما تكاد تستقر على رأي حتى تصطدم بالرأي الآخر، لذلك هي لا تستطيع أن تُعطي تفسيرًا واحدًا للصهيونية، هناك من المفكرين العرب من يرى بأن الصهيونية هي نتاج النبوءات الرجعية والتفسير الحرفي للتوراة بل إنها نابعة من الشذوذ الإسرائيلي الناجم عن النزعة الدينية، ومنهم من يعتقد بأن الكيان الإسرائيلي قد ولد من الفكر الاستعماري الاقتصادي الرأسمالي، لهذا لا يصح أن نعتبر أن كل السلبيات الصهيونية مردها إلى الدين، فما دام الأمر كذلك فإننا نلمس بأن هناك افتراء ما على التاريخ، يا ترى أين الصواب.. لنحاول!

قبل كل شيء، يجب ألا ننسى أن الأرثوذكسية اليهودية قطاع كبير منها من رفض الصهيونية وعارضها منذ بذورها الأولى، والسبب هو خوف المؤسسة الدينية فقدان السيطرة على شتات اليهود ذي الرابط الديني الهش المتباعد جغرافيًا في بلاد العالم، لهذا عارض الحاخامات الهجرة اليهودية إلى الأمريكيتين وغرب أوروبا، لهذا أيضًا يمكن القول بإن الحركة الصهيونية أوجدها في الأساس من هم ليسوا متدينين بل بدافع استعماري اقتصادي في الأساس، وإن كانت في بداياتها تلبس ثوب اليهودية المتمثل بحماس أغنياء يهود أوروبا للصهيونية بهدف

الاستثمار والربح، إن الصهيونية ما كان لها أن تبرز لولا أن المجتمعات الأوروبية استبدلت الدين كفكر شمولي تحكم طويلاً في المجتمعات الأوروبية بالحكم الدنيوي، وهو ما جعل يهود أوروبا أيضًا ينهضون ويركبون موجة النهضة القومية الأوروبية وراحوا يقلدون ما ذهب إليه الأوروبيون، ومن هنا نبتت فكرة أن يكون لليهود وطن يمارسون عليه طقوسهم التاريخية والقومية أسوة بالآخرين.

إن غالبية نشطاء الصهيونية الأوائل كانوا علمانيين لا يمتون لليهودية إلا بالأسماء والعرق من جهة أمهاتهم، إن الديانة اليهودية تحلل زواج المرأة اليهودية من غير اليهودي، وحيث أن اليهودي يُعَرَّف بأنه مَنْ وُلد من أم يهودية، لذا نستطيع أن نتخيل أن معظم يهود العالم لا يمتون بصلة إلى يهود الكتاب المقدس، وحيث إن آباءهم بُناء على ما نرى ليسوا يهودًا، فإن من المفترض أن تكون لهم ثقافات تستند أساسًا على غير الديانة اليهودية أو ثقافة لا دينية، وهو ما يؤكد بأن الصهاينة الأوائل ومن بلوروا فكرتهم ووضعوها في قالب النبوءات لم يكونوا إلا من العلمانيين، وإن تحدثوا بحماس عن الدين لبسطاء اليهود المتدينين فإنهم كانوا يهدفون إلى زيادة عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين حتى يكونوا ركيزة لهم في مشروعهم الاستعماري.

لذا نستطيع بسهولة أن نلمس، بأنه منذ إنشاء إسرائيل لم يترك اليهود الأوروبيون ولا الأمريكيون ومن على شاكلتهم بلادهم إلى فلسطين، لم يتركوا بلادهم بشكل جماعي ملموس، ولم يذهبوا للإقامة في إسرائيل، رغم أنهم أنفسهم هم من أقاموا الصهيونية في الأساس بل وسوقوها للبسطاء على أن فلسطين هي أرض الميعاد التي وعد الرب بها أتباع موسى.

إن غالبية سكان الكيان الإسرائيلي هم من الفقراء أتوا أو جيء بهم من دول أوروبا الشرقية وممن ليسوا متدينين، وهكذا كان قادة الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين أمثال آشر غينتسبرج، أوسشيكين، بنسيكر، موتسكين، موزيس هيس، تيدور هرتزل، فاربورغ، ابنهايمر، بودنهايمر، وحتى قادة الهجرة

اليهودية الثانية أمثال بن جوريون، بن تسفي، بيرل كتسنلسون، يتسحاق طبنكين كل هؤلاء وغيرهم كانوا علمانيين.

هذا، وهناك فرق إذا كان هناك نسبة من اليهود المتدينين قد انضموا إلى الصهيونية فأطلق عليهم "الصهيونية الدينية" وليس الدين الصهيوني، ولكن يتضح جليًا بأن الصهيونية لم تنشأ في الأساس من داخل اليهودية، لكنها نشأت من البيئة والظروف الاجتماعية في المجتمعات الأوروبية التي تطورت في العصور الوسطي، لذا يمكن القول بإن الصهاينة بصفة عامة كانوا متحمسين للأساطير اليهودية، وإلا كيف يكون هناك مشروع بحجم بناء وطن جديد لا يستند على اختراع أيديولوجية ولا بد من زرع جذور لها في التاريخ لكي تبدو ثقافة لها لون مختلف عن الآخرين، ما زال الصهاينة في إسرائيل يبحثون لهم عن جذور من خلال التنقيب، عسى أن يكون هناك شيء يمكن أن يقال عنه بإنه هيكل سليمان المزعوم.

وعلى ذلك يمكن القول بإن الدين اليهودي قد انضم للحركة الصهيونية في وقت متأخر، بل وأدخل الدين في نسيج الحركة الصهيونية بشكل فعال غداة المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م، حينما جرى البحث على أجلاس أحد الحاخامات ذوي اللبس الأسود الطويل عند المنصة كرمز على أن الصهيونية تنطلق أيضًا من أجل اليهودية، علمًا بأن هرتزل في بداية دعوته للصهيونية حاول استمالة اليهود المتدينين فلم يستجب لدعوته إلا القليلون، وها هو الصهيوني العتيد "تيدور هرتزل" أيضًا يبرهن مبكرًا على أن الصهيونية لم تنشأ من الديانة اليهودية، يقول في كتابه الدولة اليهود "نحن سنكون هناك جزءًا من الحصن الأوروبي ضد آسيا، وموقع محصن مقابل البربرية"، ويضيف هرتزل: "سيقال إن الفقراء فقط سيجيئون معنا لكن هؤلاء بالذات هم الذين نريدهم في البداية، اليائسون فقط سيكونون محتلين جيدين".

المتمعن في السنوات على مدى ما ينيف عن الستين عامًا منذ إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين وحتى الآن (٢٠١٠ م)، يُدرك بسهولة أنه لم يكن

للمتدينين في إسرائيل دور رئيسي في السياسة الإسرائيلية، ولم يكونوا أبدًا حكامًا لإسرائيل، فما زالوا ملتزمين بل ومحاصرين في معابدهم منذ انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول، فحينما سُئِل هرتزل عن شعوره بعد انتهاء المؤتمر المذكور، قال أستطيع القول بإننا أقمنا الدولة الإسرائيلية"، ومن أقواله في تلك المناسبة أيضًا أنه قال ما معناه، إن على رجال الدين اليهود في إسرائيل القادمة، أن يعودوا إلى معابدهم كما الجيش يعود إلى ثكناته، أي أن الحكم لن يكون لهم في الدولة الصهيونية.

تعريف الصهيونية:

إن تعريف الصهيونية في الظاهر يبدو سهلاً، لكنه في الحقيقة ليس كذلك خصوصًا وأن التعريف الغربي هو غير التعريف العربي والإسلامي، أما التعريف اليهودي فيأتي بين التعريفين، لهذا دعنا نبحر في هذا البحث في كل الاتجاهات فلا ننقاد لخط سير واحد حتى لو تعارض المسار مع قناعات لنا سابقة، لأن من أفضل الوسائل للوصول إلى الفكرة الثالثة، هو صدام الفكرة الأولى مع الفكرة الثانية.

إن التعريف الغربي للصهيونية معناه الأمل، بمعنى التخلص من العبء اليهودي في المجتمعات الغربية، وحل ما سمي بالمشكلة اليهودية بما يريح الغرب واليهود أنفسهم أو ما يمكن أن نطلق عليه حل المشكلة اليهودية، وأما التعريف العربي للصهيونية، فهو إنها عدوان ومؤامرة تتجسد في أنها، أعطى من لا يملك حقًا لمن لا يستحق، فالصهيونية عدوان صريح على قطعة غالية من الوطن العربي لها مكانة دينية عند العرب والمسلمين، التعريف اليهودي للصهيونية، هو بين التعريف الغربي والتعريف العربي، وأسوأ الأمور هنا هو أوسطها بوجه خاص ما دام الأمر يتعلق بالصهيونية والدولة الصهيونية! فالصهيونية بالنسبة لليهود إضافة إلى أنها مشروع بالمعنى الغربي، إلا أنها مشروع حلولي يستند إلى نبوءات أتى بها اليهود بناء على ما جبلت عليه النفسية اليهودية من طمع

وجشع واسترخاص ما للغير أو ما لكل من يطلقون اليهود عليهم الأغيار، لقد استغل اليهود سبقهم في تدوين التاريخ وقدم الديانة اليهودية واستمرار الحوار معها، وبسبب استضعافهم بين الأمم لم يجدوا سوى التسلح بالمثاليات ويلبسوا أنفسهم بها، فهم الأفضل في كل شيء، واختياراتهم فوق كل البشر لأنهم وضعوا أنفسهم فوق كل البشر، كأنهم لا يمشون على الأرض ولا يستنشقون نفس الهواء كما الآخرون.

وفي كل الأحوال فإن من يقفون خلف الصهيونية ويدعمونها، يدعون في الظاهر بأنها تعني عودة اليهود إلى أرضهم وتراثهم وما يمكن أن يقول الإنسان عندما يحن إلى شيء بعيد المنال، لذلك لا يمكن الركون إلى تعريف واحد للصهيونية فسرعان ما نجد المعنى يتراجع كلما تمادينا في الحديث عن هذا المعنى الرمز، الذي يمكن تفسيره بطرق كثيرة تبعًا لغاية من له علاقة!

الصهيونية في الظاهر وكما تشيع آلة الإعلام الصهيونية ومن يسير خلفها، هي آلية تحقيق المشيحانية وعودة المسيح لكي تبدأ بعد ذلك دولة الألف عام. ولكن من منظور الكثيرين ليس للدين علاقة بها بسبب أنها تجمع ألوان مختلفة من الطيف اليهودي الذي يبدأ باليهودية الأرثوذكسية وينتهي بالعلمانية واللا دينية، ومن الطبيعي أن تكون النظرة المستقبلية لكل تيار تختلف عن التيارات الأخرى، أذن لو صح هذا التعريف فإن التقاء الساعين إلى تحقيق الحلم، مكتوب لهم أن يختلفوا بعد تحقيق الهدف لكثرة التعريفات والتفسيرات والتناقضات كما سنرى في التالي.

بصورة أخرى، الصهيونية حركة سياسية تسعى لحل المشكلة اليهودية بالتوطين في أرض الميعاد (فلسطين)، وحسب المصطلحات الصهيونية فإنها حركة وطنية لإعادة الشعب اليهودي إلى وطنه، ورغم أن التعريف الصهيوني مضلل فإنهم في النهاية تمكنوا من إنشاء دولة إسرائيل، علمًا بأنه لا تنطبق على الصهيونية مفاهيم الحركات الوطنية التي تنبع وسط شعب موجود على أرض معينة ويواجه تحديات داخلية وخارجية، كما أن اليهود ليسوا بشعب، لأنهم ينتمون إلى قوميات

وعرقيات مختلفة، فغالبيتهم من يهود الخزر الذين يعودون في أصولهم إلى قبائل تركية تترية قديمة، فضلاً عن يهود العرب والفلاشا السود وغيرهم، كما أن التضليل لا يقف عند هذا فقط بل إن استعمال مصطلح أرض إسرائيل يلغي نحو أربعة آلاف عام من التاريخ المعلوم الذي لم تكن فيه أرض تعرف بهذا الاسم، وربما كان الأفضل لتحقيق الانسجام التاريخي أن يكون حديث الصهاينة اليهود عن مناطق شمال القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين (الخزر).

الصهيونية هي مثل أي مشروع. ما يزال يصعد حتى يصل إلى القمة ويتوقف، ومتى توقف فإنه سيسير في الطريق العكسي للصعود. لا بأس أن نستمر ونتابع للتعرف على إيحاءات الاستدلال على ما قد تؤول إليه الصهيونية مهما كانت الصورة أو التسمية التي تحملها في أي عصر، سواء كانت على صورة رمز حركي مثل كلمة الصهيونية أو الدولة الإسرائيلية أو دولة اليهود الخ.

يمكن تصور ما يمكن أن يكون عليه تعريف الصهيونية مستقبلاً إذا تذكرنا ماذا كان أصحاب كل فكر يعطون معنى للصهيونية، كانت هناك الصهيونية العمالية، والصهيونية المسيحية، والصهيونية صهيون، والصهيونية بلا صهيونية، والأخيرة هي التي تحكم الآن في إسرائيل (٢٠١٠م)، هذا وهناك أنواع أخرى من الصهيونية مع مرور الوقت، مثل صهيونية الدياسبرا التوطينيين (الجاليات اليهودية في دول العالم الذين يتمسكون بأوطانهم التي ولدوا فيها)، كما توجد أسماء أخرى للصهيونية، مثل الصهيونية الدبلوماسية، والصهيونية العملية، والصهيونية التوفيقية، والصهيونية الثقافية، وأخيرًا ظهرت أنواع أخرى من الصهيونية، مثل الصهيونية الديمقراطية، والصهيونية العمالية، والصهيونية التصحيحية، والصهيونية الراديكالية، وكل صهيونية لها توجُّهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعًا لا تختلف في الهدف من ناحية الالتقاء عند سقف ما.

إذا كان كل الذين قد انطبق عليهم تعريفات الصهيونية التي ذكرناها على اختلاف أيديولوجياتهم يعملون من أجل بناء وطن ديني أو قومي أو اقتصادي لليهود في فلسطين، وإذا كنا قد استنبطنا أنه من الممكن أن تكون هناك صهيونية الذين لا

يرغبون الهجرة أو صهيونية الصالونات أو أصحاب الشيكات الذين يدعمون المشروع الصهيوني في فلسطين لكنهم لن يذهبوا للعيش في الدولة المزعومة، فهل يمكن القول بإن النازية التي عملت على طرد اليهود وترويعهم هي صهيونية النازية للتخلص من اليهود بإرهابهم وقتلهم لدفع من تبقى منهم باللحاق سريعًا بالآخرين! بعض زعماء النازية خلال محاكماتهم، قالوا بإنهم صهاينة وهم مقتنعون بأن أرض اليهود هي فلسطين، وقد حاولوا على طريقتهم بأن يدفعوا اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين! فهل الذين مارسوا العنصرية واللا سامية ضد اليهود في أوروبا هم أيضًا صهاينة!

لما كان اليهود لا يجمعهم عرق واحد ولا وطن واحد، وكونهم قد اختلطوا وتزاوجوا مع الشعوب الأخرى، وانحصر تعريف اليهودي بمن أمه يهودية أو من تهود، فقد كانت اليهودية عقيدة وطقوس دينية، وأضحى لا يربط اليهودي باليهودي بالتراث اليهودي التوراتي إلا طقوس العبادة، لذا فقد أصبح اليهود في الغالب أقل تمسكًا بتفاسير التوراة من بعض المسيحيين، لقد أضحى البروتستانت أكثر تمسكًا بالتفسير الحرفي للتوراة من كثير من الاتجاهات الدينية اليهودية، كما أن العامل الاقتصادي قد لعب دورًا كبيرًا في أهداف الصهيونية، فلو وجد أصحاب المشروع الصهيوني القومي من أمثال هرتزل أن لا فائدة اقتصادية كتعبير عن عدم وقوف القوى الرأسمالية خلف مشروعه الصهيوني، لما استمر فيه حتى النهاية، لماذا أيضًا لا يكون تمويل أغنياء اليهود في أوروبا الغربية لبناء وطن يستوعب المهاجرين اليهود القادمين من روسيا الهدف منه هو عدم قدوم المهاجرين الروس إلى أوروبا الغربية، حتى لا تتزعزع مكانة يهود أوروبا الاجتماعية والاقتصادية!

مهما حاول أساطين الصهيونية وأعلامهم أن يضفوا معاني وصفات إيجابية على الصهيونية التي غزت فلسطين أرض شعب آخر، فإنهم لن يستطيعوا إخفاء حقيقة بأن من ساهم بنصيب الأسد في تحقيق الوطن القومي لليهود هو الغرب الذي له ما له من أهداف، ووجد من مصلحته أن يجعل الحلم الصهيوني حقيقة، فلو أن

الغرب لم يكن يهدف إلى تقسيم الوطن العربي إلى أفريقي وآسيوي لتصعيب تحقيق الوحدة العربية، ولولا أنه - أي الغرب - أراد أن يضع حدًا لطموحات محمد علي (مصر) في بناء قوة عربية منيعة في المنطقة، ولولا أن الغرب قد ألغى وجود الشعب الفلسطيني حينما أصدرت بريطانيا وعد بلفور الذي يقرر بناء وطن قومي لليهود في فلسطين واستعمال عبارة "ألا يضر بحقوق الجماعات الأخرى من غير اليهود" بما في ذلك ما للعبارة من لبس وسوء نية، لأن معناها أن فلسطين لا يسكنها شعب، أي إنها أرض بلا شعب، ولولا أن الغرب قد اعترف بدولة إسرائيل وجعل الأمم المتحدة تعترف بإسرائيل قبل أن يحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ولولا التسهيلات والمساعدات السخية للحركة الصهيونية ولإسرائيل بعد ذلك لما استطاع اليهود أن يعلنوا لهم دولة عام ١٩٤٨م، وتلك نقطة مهمة ليت كل إنسان عربي يعيها جيدًا.

"يوري افنيري" يُشبِّه الصهيونية بالبيوريتانية نسبة إلى البيوريتان أو التطهريون، البيوريتان هم أعضاء حركة دينية نصرانية اجتماعية ظهرت خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين في انجلترا، ثم انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان لها تأثير على المؤسسات الاجتماعية والسياسية والدينية، ولذلك هناك صهيونية توطينية وصهيونية استيطانية وكلاهما تختلف عن الأخرى اختلافا كبيرًا، بمعنى أن الصهيوني بعد أن يستوطن فلسطين تصبح له دوافع مختلفة عن الهدف الأساسي من القدوم إليها حيث الاقتصاد والظروف الاجتماعية تلعب دورها في البقاء على الأسباب الأولى لتصبح مجرد تراث وتاريخ، ويذهب بعض الباحثين من اليهود بالقول إن الصهيونية لم تكن سوى حركة إنقاذ أوجدت حلاً للمشكلة اليهودية في شرق أوروبا ولم يعد لوجودها مبرر.

العرب يرون أن الصهيونية ببساطة هي حركة استعمارية استيطانية دينية، لأنها ركزت على الجغرافيا باعتبار أن فلسطين هي أرض التراث اليهودي، لكن الهدف الصهيوني لم يكن نقيًا ومنسجمًا مع حركة التاريخ، فربما كانت فلسطين يومًا وطنًا لليهود لكنها بعد ذلك أصبحت جزء من التراث العربي الإسلامي، وكما كانت

قبل تواجد بني إسرائيل وقبلهم العبرانيون فيها، وهذا ما سيجعل الصراع محتدمًا بين العرب واليهود ليظل في النهاية ليس مشكلة بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود وإنما بين قوميتين، العربية والصهيونية اليهودية، ولن يتوقف الصراع حتى تحتوي إحداهما الأخرى إلى حد أن تصبح القومية المغلوبة لا تعني بالنسبة لمن ينحدرون منها سوى أنها ليست أكثر من مجرد آثار تاريخية، لذلك فإن الصراع القومي العربي مع الصهيونية لا يبدو أن له نهاية في المستقبل المنظور.

لا شك بأن الصهيونية ما زالت حركة نشطة وما زال بناؤها يتسع ويعلوا على حساب القومية العربية، لكن حركة القومية العربية بدأت تستفيق لأسباب كثيرة، لو أخذنا بعض هذه الأسباب من هذا العصر وحاكمناه أو احتكمنا إليه فيمكن أن ندرك حينها بأن الصراع بين اليهودية القومية (الصهيونية) وبين العروبة سيشتد وطيسه مع الأيام، وسيأخذ صورة الصراع الأيديولوجي الثقافي أكثر من الحروب العسكرية، صحيح أن الصهيونية لها ذراع إعلامي طويل ولها من المساندة الغربية ما لها من رصيد، وصحيح أن العرب ما زالوا لا يستطيعون أن يتعارضوا مع المصالح الغربية جهارًا، إلا أن الصهيونية تظل محدودة الطاقة وموجات التاريخ مستمرة في القدوم والبحر لا يظل ساكنًا، كما أن القومية العربية وإن ابتسمت مجبرة للواقع فهذا ليس معناه بأنها تقبل الزوال، وخير دليل على ذلك اتفاقيات السلام التي عقدت بين كل من إسرائيل ومصر والأردن، لم تؤت تلك الاتفاقيات أكلها بالنسبة للدولة الصهيونية بعد على مدى كل السنوات الماضية، فلم تكن أكثر من حبر على ورق، وإن الشارع العربي في كلتا الدولتين ما زال يزداد عداء مع الدولة الصهيونية، وإن بدت الحكومات متصالحة مع إسرائيل.

ثم كيف يمكننا أن نطلق على الصهيونية بأنها القومية اليهودية في حين أن أغلب يهود العالم متمسكون بأوطانهم الأصلية وإن كانت الصهيونية تحاول صهينة يهود العالم بكل الطرق الممكنة لأجل أن تدعي بأنها المركز الأخلاقي والقومي لليهود، وهنا فرق بين القومية العربية والصهيونية القومية.

بالنسبة للعرب، القومية كانت موجودة وظلت مستمرة بعد وصول الرسالة الإسلامية، أما بالنسبة للصهيونية فإن القومية لم تكن موجودة حتى في ذاكرة العبرانيين، وربما الأقرب أن يكون اليهود أقرب إلى القومية السامية التي تجمعهم مع العرب أكثر وأعمق من فكر علماني لا ينبع من بيئة نشأت فيها الأمة، إذن وجود معظم اليهود ليس في الوطن القومي المزعوم لعدم انتمائهم القومي، ووجود معسكرات اللاجئين الفلسطينيين المحيطة بالدولة الصهيونية تتكدس مع الأيام لن يجعل مستقبلاً آمنًا لدولة صهيون.

وربما كانت الصهيونية هي إحدى وسائل الحل للمسألة اليهودية كما تراءت لزعمائها، إلا أن مبرراتها لم تستند على أسباب أخلاقية، فالصهيونية في الأساس هي حركة علمانية وأي حركة علمانية هي مدخل واسع للرأسمالية التي تعتمد أصلاً على مبدأ المنافسة والمصلحة والربح المادي، لقد كان العنصر اليهودي منبوذًا عضويًا في المجتمعات الغربية، لأنه كان معزولاً ومتقوقعًا على نفسه، لا يفيد من يعيش بينهم بل إنه يعيش عليهم، يأخذ منهم ولا يعطيهم، لذا وجد الأوروبيون أن ما لا ينفع يجب نقله لكي يصبح له وظيفة ويعطي مردودًا نافعًا.

في الماضي كان ينقل المساجين من قطر إلى آخر، فبدلاً من كونهم ضارِّين في مجتمع ما، بعد نقلهم إلى بلد آخر يصبحون نافعين، وهذا ما حدث بالفعل حينما كانت بريطانيا تنقل المساجين إلى استراليا ويصبحون منتجين، أو كما عمل الأوروبيون حينما كانوا يدفعون العتاة والعصاة والأقوياء ويغرونهم ويقذفون بهم إلى أرض العالم الجديد (أمريكا) لكي يحققوا أهدافًا نافعة، الأمر هنا لم يختلف من حيث المبدأ مع ما كان يقوم به الفرد اليهودي في المجتمعات التي يعيش فيها من تبعية ووظيفة للقبول به، وأصبح بدلاً من توظيف فرد واحد، صار يراد توظيف جماعات بحجم الطائفة والكم البشري مثل يهود أوروبا الذين قدموا إليها من الشرق، وذلك لكي يصبح لهم عمل نافع لمن يديرهم.

لهذا، اغتنم الصهاينة القوميون ما سعت إليه الرأسمالية الغربية وراحت تنظم عملية إخراج اليهود إلى أي منطقة غير تواجدهم في أوروبا خصوصًا اليهود الذين وصلوا من روسيا، ومن هنا التقت مصالح الصهيونية مع مصالح الدول الأوروبية التي اكتشفت وجود وظيفة لليهود بحجم خدمة المصالح الغربية في الشرق المتمثل بما يمكن أن يقدمه وجود دولة دائمة مرتبطة عضويًا ماديًا ومعنويًا وحضاريًا بالغرب الرأسمالي، ولهذا كان وعد بلفور عام ١٩١٧م، وكان إعلان ضمان أمن إسرائيل الذي وقَّعته الدول الأوروبية مجتمعة، ثم كان التحالف الاستراتيجي بين أمريكا وإسرائيل الذي وقَّعته الدولتان.

وهنا، أصبح يوجد تعريف آخر للصهيونية بغض النظر عن المقدمات والتمهيد والديباجات، هو صهيونية غير اليهود وصهيونية المصلحة، فإذا تخيلنا أن بعض الدول الأوروبية أبدت تحمسًا للوطن القومي اليهودي بما كان يفوق أحيانًا تطلعات الصهاينة أنفسهم الساعين إلى بناء دولة لليهود، بل إن الصهيونية المسيحية عمدت على الدفع في اتجاه أن يكون وطن اليهود في فلسطين وليس في أي مكان آخر، كونها تؤمن بالتفسير الحرفي للتوراة، لذا يمكن القول بإن التعريف الأقرب للصهيونية، هو أنها حركة فكرية سياسية اقتصادية اجتماعية ما كان لها أن تعيش إلا باستمرار وجود الحضارة الغربية.

بالنسبة لليهود أنفسهم رغم أن القائمين على الصهيونية هم العلمانيون، إلا أن هؤلاء بسبب مرونتهم السياسية وعدم تجمدهم عند النبوءات الدينية، استطاعوا إلى حد كبير أن يربطوا كل التيارات الصهيونية بالمشروع الوظيفي للدولة الناشئة، وحسموا الأمر إرضاء للمتدينين اليهود بأن قالوا بإننا جميعًا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وحلولية التقديس تمتد إلينا جميعًا، ولذلك تم الاعتراف بأن أي يهودي علماني أم ديني هو مقدس بغض النظر عن مصدر التقديس له، وهكذا حُسم الأمر وتم مزاوجة الهدف الغربي من إخراج اليهود من مجتمع ينبذهم إلى أرض يكون لهم فيها وظيفة، يخدمون الغير ويخدمون أنفسهم، ويصبحون منتجين بدل أن كانوا صامتين، وهذا مما يثبت بأن المشروع

الصهيوني هو شراكة غربية، بل إنه بلا مبالغة مشروع غربي أكثر منه صهيوني، فحينما كان الحديث عن الوطن القومي الذي يمكن أن يعيش فيه اليهود، كان عن أي بلد بما فيها فلسطين، ثم إن صياغة الشعارات الصهيونية التي شدت اهتمام الشبيبة اليهودية حين تأسيس الحركة الصهيونية، أصدرها أساسًا المسيحيون المتصهيونون في الغرب.

اللورد شافتسبري البريطاني، كان أول من استعمل الشعار العلماني في منتصف القرن التاسع عشر، "الأرض القديمة للشعب القديم"، وتطور الشعار بعد ذلك إلى "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، ولكي يكون الإغراء أكثر إقناعًا فلم يشر أصحابه إلى الشعب الذي يسكن تلك الأرض لعدم اعتبارهم أي قيمة للأمة العربية تمشيًا مع روح نظرة المستعمرين للأمم الخاضعة، في النهاية تم إنجاز المشروع الصهيوني في عملية النقل المزدوج بزحزحة يهود المنفى ودفعهم للاستيطان في فلسطين، وفي نفس الوقت زحزحة الفلسطينيين وإجبارهم على ترك وطنهم إلى المنفى.

إن المشروع الغربي الحضاري المتمثل بالمشروع الصهيوني، يعتبر في غاية الدقة من ناحية نسجه وانسجامه مع الفكرة والخطة، فعوضًا عن الزخم المادي والسياسي الذي وقف خلف المشروع، فقد وضعت له الخطة الإعلامية التي تموه ما يخفي المشروع خلفه من ظلم للآخرين، فقد اعتادت القوى الغربية، بريطانيا بالذات، على التلاعب بالشعارات وبالصكوك التي تصدرها بحيث يصبح الشعار مرجع في حد ذاته يُخفي بريقه ما يحمل من مضمون أو ضرر للآخرين، فيكون أحيانًا اشد إغراء للظالم فلا يتخيل حجم المعاناة، وأكثر خداعًا للمظلوم فينسى ولو مؤقتًا ما قد يقع عليه من ظلم فيما يأتي مع الأيام، الشعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، هو من هذا النوع من الصكوك، وهو في الحقيقة يعني إبادة شعب كامل وإسقاط هويته الوطنية.

يزعم الطرح اليهودي الإيماني للديانة اليهودية، بأن اليهود هم الشعب الشاهد على الآخرين من عبدة الديانات الأخرى، لأن الإله والشعب اليهودي هو المقدس

ما دام الإله يمكن أن يحل في البشر، وأن الإله هو مَنْ وعد أبناءه اليهود بأرض الميعاد فأضحى الإله والشعب اليهودي وأرض الميعاد شيئًا واحدًا مقدسًا لا يصح أحدهم إلا بالآخرين! وهذا ما لم يحصل عليه الآخرون من قداسة من أصحاب الأديان الأخرى الذين يؤمنون بإله واحد يُحاسبهم على أفعالهم وسلوكهم، إذا لم نرد أن نأخذ هذا المفهوم كما هو، ولجأنا إلى العقل والمنطق لنبحث قناعاتنا، نجد أن هذا مجرد وهم من الأوهام، وربما هو صلف وعدم احترام لبني البشر الآخرين وتسلط واستبداد بالرأي وحب مفرط للملكية، وتعدي على القيم والمثل والفطرة البشرية.

ليس من الصعوبة إمكان دحض أوهام بني صهيون، وفضح هالة التقديس التي يصبغونها على أنفسهم، فمن أبسط الأمور أنهم ليسوا شعبًا واحدًا نقيًا حتى يوظفوا النقاء فيما يزعمون (عبد الوهاب المسيري)، ثم إن الله قد خلقهم كما خلق بني البشر الآخرين، وأن اليهودي هو من وُلِدَ لأم يهودية أو من تهود، وفي كلا الحالين فإن الإنسان اليهودي هو مزيج من أعراق مختلفة لو احتكمنا فقط إلى تعريف من هو اليهودي، فما بالنا وأن اليهود أصلاً لا يعيشون على أرض واحدة، يهودي بريطاني، ويهودي فرنسي، ويهودي أمريكي، ويهودي يمني، ويهودي روسي، ويهودي مصري، ويهودي إثيوبي الخ، وقد أدى هذا إلى تركيب يهودي بيولوجي غير متجانس، فكيف إذن يسحبون على أنفسهم هالة التقديس!

من ناحية أخرى، إن من الواضح أن الجماعات اليهودية تعيش في كنف مجتمعات تختلف عن بعضها في ثقافاتها، وأن اليهود معزولين أيضًا فيها، ويقومون بوظائف ومهمات تختلف حسب كل مجتمع يقيمون فيه، فقد أدى هذا أيضًا إلى عدم وجود الرابط القومي المزعوم في وجدان كل يهودي، بمعنى أن اليهودية دين وليست قومية، والعقائد لا حدود جغرافية لها، فقد يكون للجسد البشري حيز في المكان ولكن لا توجد حدود للفكر، وهذه البراهين هي ما يبطل مقولة القومية اليهودية، في نفس الوقت علينا ألا ننكر، بأن الصهيونية ما زالت تقوم بعمل الكثير من أجل ترسيخ أن اليهود عرق واحد بكل وسائل الزيف وإنهم

أبناء الله، وأن الرابط العاطفي بين اليهود يوجد بهم الشعور القومي الذي يربط الشعب بهوية الأرض.

يقول المؤرخ اليهودي الإسرائيلي "شلومو زانت" في كتابه "كيف تمّ اختراع الشعب اليهودي"، ذلك الكتاب الذي عمل دويًا كبيرًا عند المؤرخين والمهتمين العرب والأجانب، وتُرجم إلى لغات كثيرة، قال الرجل الذي لا يمكن اتهامه بالعداء للصهيونية أو للسامية بناء على أدلة وبراهين ومراجع عديدة، قال إن كل ما قيل عن تهجير اليهود بالقوة من فلسطين بعد تدمير الهيكل هو خرافة، وكل ما قيل عن نقاء العرق اليهودي في المنافي على مدى القرون أو أن من عادوا إلى فلسطين هم من نسل من طردوا قبل ألفي عام، ومن هاجروا من مصر إلى فلسطين وأقاموا مملكة داود وسليمان، كل هذا يقول عنه "زانت"، خرافات في خرافات، وأساطير وخيال أرادوها حقائق على الأرض على حساب الآخرين، المؤرخ شلومو زانت عمل على فضح كل ما ادعته الصهيونية في القرن التاسع عشر لنسج الأسطورة التي على أساسها أقيمت دولة إسرائيل، كما وأشار إلى كل ما كان يقوله "ديفيد بن جوريون" في أواخر عشرينات القرن العشرين الذي أصبح فيما بعد أول رئيس وزراء لإسرائيل، قال ديفيد بن جوريون حينها، إن الفلسطينيين هم أحفاد العبرانيين القدامى وسيحتضنون إخوتهم اليهود المهاجرين القادمين إلى فلسطين، ولما تمسك الفلسطينيون بوطنهم وعروبتهم غيَّر بن جوريون أطروحته، وذهب يدَّعي بأن الفلسطينيين أجانب أتوا إلى فلسطين بعد أن دمر الرومان الهيكل.

ويقول الناشط الحقوقي "منصف المرزوقي" (بحث قضايا وحوارات – موقع المؤرخ) في تحليل كتاب شلومو زانت: "السؤال الذي يطرح بعد قراءة هذا الكتاب هو هل نحن أمام ظاهرة خاصة يختص بها اليهود أم هل نحن أمام قانون عام؟ أي أن كل تواريخ الأمم التي تدرس في المدارس الثانوية مفبركة من الألف إلى الياء".

هناك أمثلة كثيرة على تزييف التاريخ، يقوم بها المنتصرون أو القادرون في الأمم لأهداف سياسية محضة، يقول منصف المرزوقي، "الثابت إذن أن التاريخ المكتوب ليس صورة مطابقة للأصل عن الماضي - ولو بثغرات ووضوح متفاوت - وإنما هو دومًا تفويض له لتفسير وتبرير أو خلق وضع خاضع لأجندة سياسية مسبقة"، هل التاريخ الذي تم تدريسه لطلبة المدارس في روسيا بعد الثورة البلشفية مثلاً، هل هو تاريخ روسيا الحقيقي بل هل التاريخ العربي الذي يدرس الآن في كل دولة عربية على حدة، هل هو التاريخ العربي الحقيقي بما يعني القائمون في الدولة الإقليمية الواحدة! طبعا لا.. والأمثلة على هذا حتى بين الأمم الأخرى لا تُعد ولا تحصى!

إن من المهم الآن، أن نُحدد المعنى الصحيح للدولة اليهودية، إن معنى الدولة الإسرائيلية هو الاسم المرادف للدولة الصهيونية، لكن الأصح هو الدولة الصهيونية، لأن الإسرائيلية هو اسم خادع فقد يظن من لا يعرفون بأن الدولة الإسرائيلية هي امتداد للعهد الإسرائيلي الذي ظهر في فلسطين قبل ٢٠٠٠ عام، أما الدولة الصهيونية فهي التي وجدت على أساس الحركة التي أعطيت اسمًا عالميًا عام ١٨٩٧م فقيل عنها الحركة الصهيونية العالمية، وهي في الأساس ليست حركة عالمية، لأنها أول ما وجدت في أوروبا الغربية فقبل إيجادها كان معظم المهاجرين اليهود الذين قدموا من روسيا وأوروبا الشرقية قد استقروا في دول أوروبا الغربية، لكن أصحاب المشروع الصهيوني يطلقون على الحركة، الصهيونية العالمية، بهدف القول بإن يهود العالم كلهم صهاينة ويجمعهم هدف واحد، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك.

في هذه الأيام (٢٠١٠ م)، تقوم الصهيونية وإسرائيل بحملة كبيرة تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية التي بها نفوذ يهودي صهيوني كبير، فتشترط إسرائيل على العرب لكي تتخلى عن بعض الأراضي المحتلة أو عن قبول إقامة دولة للفلسطينيين بجانب إسرائيل، تشترط أن يعترف العرب بإسرائيل دولة يهودية، الصهاينة يهدفون إلى أن يؤرخوا للدولة الصهيونية التي رفضها العرب منذ عام

١٩٤٨م، بأن تاريخها يمتد في العمق منذ أن وجد اليهود، ولا يريدون أن يؤرخوا لها بأنها لم تنشأ إلا بوعد بلفور عام ١٩١٧ م من بريطانيا وحرب ١٩٤٨م وتهجير الفلسطينيين أصحاب الأرض.

الصهيونية تنقسم إلى قسمين رئيسيين، الصهيونية القومية، والصهيونية الوطنية، بغضِّ النظر عن خصوصية الفروع لكل قسم كالفرع الديني أو العلماني أو الاشتراكي أو الرأسمالي الخ.

الصهيونية القومية وقد وجد أعضاؤها ومؤيدوها داخل التشكيل الحضاري الغربي المتمثل في الغالب من نسيج المهاجرين الذين أقاموا في فرنسا، انجلترا، ألمانيا، النمسا، ومنهم من أيَّد الهجرة إلى إسرائيل والإقامة فيها.

الصهيونية الوطنية، وغالبية مؤيديها يقطنون في التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي في كل من الولايات المتحدة، كندا، استراليا، نيوزيلندا، أمريكا اللاتينية، جنوب أفريقيا، إسرائيل، وهم من رفعوا راية الصهيونية وهم أكثرية اليهود، لكنهم فضلوا أن تكون إسرائيل مركزًا أخلاقيًا ليهود العالم، لكن ليس بالضرورة أو يتوجب الإقامة فيها، ولا مانع من مساعدتها بالمال وغيره دون الإقامة فيها، وهؤلاء لا يعتبرون تواجدهم في تلك الأوطان منفى لهم، ومنهم من استوطن إسرائيل أيضًا، وحسبنا أن نعلم أيضًا وبصورة أخرى، بأن كلمة "عالمية" في الحركة الصهيونية العالمية، لا تعني أن الحركة الصهيونية هي عالمية بقدر ما كان يظن أصحاب المشروع الصهيوني، بأن دول أوروبا الغربية هي مركز العالم بسبب موقعها وتفوقها حضاريًا على الآخرين.

وهنا لا بد من الحديث بصورة أخرى ولو قليلاً عن الصهيوني التوطيني، فحينما يقرر مثلا أحد يهود مناطق دول أوروبا الشرقية (الاتحاد السوفييتي سابقًا) أن يهاجر إلى الوطن اليهودي المزعوم، فإنه يُعلن عن نفسه للحركة الصهيونية، ويمضي إلى الحصول إلى تأشيرة الهجرة إلى إسرائيل فيحصل عليها ويخرج من بلده متجها إلى إسرائيل، وحينما يصل النمسا خلال الطريق تراه يتوقف مع

نفسه، وفي أغلب الأحوال يحوّل طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية فيستوطنها، وهناك في الولايات المتحدة، قد يكون منتميًا إلى أي من فروع الحركة الصهيونية أو أحد الأحزاب في الدولة الصهيونية، فيصبح مواطنًا أمريكيًا ويظل مسانداً للدولة الصهيونية بواسطة التبرعات والتأييد المعنوي والإعلامي، فيحضر المهرجانات ويقوم بخدمات من أجل الصهيونية، لكنه لا يُغير وطنه الولايات المتحدة الأمريكية.

إن كثيرًا ما تحدث خلافات بين الصهيوني التوطيني الذي يُقيم خارج إسرائيل، والصهيوني الاستيطاني الذي يُقيم في إسرائيل نفسها، يأخذ الصهيوني التوطيني على من يقيم في إسرائيل ما يسببه هؤلاء من حرج لهم في دولهم الديمقراطية، سواء بسبب اعتدائهم على حقوق الإنسان والمذابح التي يقيمونها ضد الفلسطينيين والإفراط في استعمال القوة، وكذلك النشاطات التجسسية التي يقوم بها الاستيطانيون في إسرائيل على الدول التي يقيم فيها الصهاينة التوطينيون.

ويأخذ الصهاينة سكان إسرائيل على التوطينيين بأنهم يتدخلون فيما ليس لهم فيه في كيفية إدارة شئون دولة اليهود، لكن الحركة الصهيونية التي ما زالت نشطة بهيمنتها الإعلامية لا زالت تراوغ في خطابها الأيديولوجي وتعمل على احتواء الجميع داخل الإطار العام للمشروع الصهيوني.

وأما في الحقيقة، فلقد كان التبشير بالوطن القومي اليهودي في الغرب، قد حدث قبل أن يعلم به معظم يهود العالم، كان الحديث عن هذا الوطن قبل وعد بلفور، ولذا صار البحث عن أي مكان توافق عليه الدول الغربية التي تريد أن تتخلص من مهاجري الاتحاد السوفييتي من اليهود إليها، فكان المهم هو نقلهم وإبعادهم عن المجتمعات الغربية، وهذا كان قد تم التفكير به قبل بروز روّاد الصهيونية الأوائل الذين انشأوا الحركة الصهيونية، لذلك كان الصهاينة التوطينيون المستقرون في تلك الدول الغربية يرون أن المهم أولاً هو التخلص من العبء الذي قد يؤثر على ما هم فيه في مجتمعاتهم من استقرار ومكانة.

لذا نؤكد مرة أخرى، أن المشروع الصهيوني هو مشروع صهيوني غربي قبل أن يكون مشروعًا صهيونيًا يهوديًا بمعنى أن الغرب الأوروبي هو المستفيد الأول من المشروع، وأن دعمه للشق الصهيوني القومي أعطى الصهاينة الأوروبيين العلمانيين اليد الطولى في التمكن من الدولة الوليدة، واستطاع هؤلاء أن يعلنوا موت الرب وورثوا القداسة، واستطاعوا أن يجعلوا الصهاينة أنفسهم هم المقدس حيث وجدوا التغطية الكاملة والسند المادي والمعنوي من الغرب بصفة عامة، لقد حدث كل هذا وما زال، ويبدوا أن الأنظمة العربية لم تُدرك حقيقة ما حدث بالفعل وإلا ربما كانت قد تصرفت بطريقة أخرى حينما تعاملت منذ البداية مع القضية الفلسطينية عام ١٩٤٨م.

حين شُرع في بناء الدولة الصهيونية، ظهرت اختلافات وتيارات عديدة داخل الحركة الصهيونية نفسها، فكان من القوى اليهودية التي جربت ألا يكون الاعتماد على القوى الأجنبية في بناء الدولة، وهؤلاء كانوا يظنون بأن الوسيلة ستكون أسهل لو أن المهاجرين اليهود تسللوا ببطء إلى فلسطين ومع الأيام يستطيعون أن يصبحوا الأكثرية فيها، ذلك بعد الاعتماد على أنفسهم في بناء المستعمرات حتى لا يكون لأحد فضل عليهم، وألا يكون هناك دين لأحد على الدولة الصهيونية، ولكن هؤلاء قد اختفى أثرهم حينما وجدت الحركة الصهيونية بزخمها الإعلامي والمادي الغربي الأوروبي.

جوزيف ترومبلدور Joseph Trumblldor:

وكان هناك أيضًا اختلافات بين المفكرين والزعماء الصهاينة الأوائل، فمنهم من كان يرى أن الاعتماد على القوى الأجنبية مهم جدًا في تحقيق حلم الدولة، ومنهم من كان يرى بأن يتم غزو فلسطين مرة واحدة بجيش يهودي يتم تدريبه وإحضاره إلى فلسطين فيفرض الحلم الصهيوني على ضفتي نهر الأردن، ومن ثم يشرع في نصب أعمدة الدولة، من هؤلاء جوزيف ترومبلدور ١٨٨٠-١٩٢٠م وقد كان ضابطًا في الجيش الروسي، وتطوع مع الفيلق اليهودي الذي حارب مع

الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ودخل فلسطين، وهو الذي رأي أن يتم تجهيز جيش قوامه مائة ألف جندي يهودي ويجلب إلى فلسطين فيحتلها، لم يتم تحقيق حلمه وقُتل على أيدي العرب إثر هجوم شنوه على مستعمرة يهودية كانت تقع في شمال فلسطين سنة ١٩٢٠م.

جوزيف ترومبلدور ١٨٨٠-١٩٢٠م

تقول الموسوعة الحرة **Wikipedia** إن "جوزيف ترومبلدور" له نصب تذكاري، يزوره طلاب المدارس الإسرائيلية مرة كل عام ليروا بأنفسهم المثل الصهيونية وقد تحققت من خلال بطولة قائد ضحَّى بحياته من أجلها، يُعتبر ترمبلدور زعيم صهيوني أصبح رمزًا للجيل القديم، هو من الصهاينة الرواد المقاتلين الذين جاءوا إلى فلسطين، قبل ذلك كان أبوه جنديًا في الجيش الروسي، التحق "جوزيف" بمدرسة دينية قبل أن يدرس طب الأسنان، تأثر بأفكار تولستوي وامتزجت أفكاره بالأفكار الصهيونية حيث بدأت تتبلور لديه فكرة المستعمرات

الصهيونية المسلحة في فلسطين، جُنِّد في الجيش الروسي عام ١٩٠٢ م، وفقدَ ذراعه اليسرى في الحرب الروسية - اليابانية، ورُقِّي وحاز عدة أوسمة ثم أعيد إلى الجبهة بناء على طلبه، فأسره اليابانيون وفي الأسر قام بتنظيم مجموعة صهيونية من الأسرى. درس "ترومبلدور" الزراعة ثم القانون، وأخذ في تنظيم مجموعة من الصهاينة في أوكرانيا عام ١٩١١ م حيث قرروا الهجرة إلى فلسطين، عمل في مستوطنة داجانيا ثم حضر المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣)، سافر مع جابوتنسكي إلى لندن من أجل تكوين الفيلق اليهودي، وفي منتصف عام ١٩١٧م سافر إلى روسيا لإقناع السلطات هناك بتكوين قوة عسكرية يهودية تُرسَل للقوقاز وتقاتل هناك حتى تصل إلى فلسطين، وبعد نجاح مبدئي فشلت هذه المهمة وألقي القبض عليه فتحوَّل إلى تكوين حركة الرائد في روسيا، يعتبر من الرواد الذين ينظر إليه الشباب اليهودي من رواد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، حيث تحيطه الدعاية الصهيونية بهالة من التمجيد وترفعه إلى مصاف الأبطال التاريخيين، لقد شارك جوزيف ترومبلدور أيضًا في كثير من العمليات العسكرية مع القوات البريطانية بعد أن استقر في فلسطين، وفي عام ١٩١٩ م شارك في الدفاع عن المستعمرات الصهيونية في الجليل الأعلى، حيث قتله العرب عام ١٩٢٠ م، يُقال إن أخر كلمات جوزيف ترومبلدور قبل موته هي هذه العبارة التي أصبحت من المأثورات الصهيونية، "إنه لأمر جيد أن أموت من أجل الوطن"، وقد جاءت حركة بيتار المسماة باسمه بعد ذلك لتركز على النواحي العسكرية الصهيونية في فكره.

هذا، وإن خلافات أخرى قد نشبت بين التيارات المختلفة في الحركة الصهيونية من ناحية كيف يكون نظام الحكم، رأسمالي أم اشتراكي، ووجود خلافات أخرى من هذا النوع، لكن جهابذة الحركة الصهيونية استطاعوا ألا يحسموا أمرًا أو يساندوا رأيًا على رأي، وتُرك الأمر للمستوطنين أنفسهم، وتوجهوا بكل ثقلهم من أجل الحصول على الوطن وإعلان الدولة أولاً، وتركوا الإشكالات الأخرى لكي تحل ضمن التفاعل بين يهود الدولة ومقتضيات الظروف، واهتموا فقط بآلية

إنشاء الدولة، وحتى هذه فقد كان هناك فريقان، أحدهما يمثل الصهيونية السكانية، وفريق آخر أطلق عليه صهيونية الأراضي، الفريق الأول دعا أن تنشأ الدولة على الأراضي التي يتواجد عليها فقط اليهود في فلسطين، والفريق الآخر دعا إلى أن تكون الدولة على الأرض التي يمكن الاستيلاء عليها (من النيل إلى الفرات)، أما الفريق الثالث فلم يعط أي فرصة حتى في الطرح، وهو الفريق الذي دعا إلى دولة ثنائية القومية بسبب أن معظم اليهود أصروا على الطبيعة الإحلالية الشاملة للدولة الصهيونية، ومن ثم ستكون هناك معارضة شديدة من السكان الفلسطينيين، لهذا رفضت فكرة الدولة ثنائية القومية من بدايتها.

كما أن الحديث في شأن سيادة الدولة الصهيونية لم يذهب إلى مسافات بعيدة قبل أن يتم الاتفاق بأن الدولة الصهيونية ستمثل كل يهود العالم، سواء التوطينيين المقيمين في البلاد الأجنبية أو الاستيطانيين الذين يسكنون الدولة الصهيونية نفسها، لهذا تم إعلان قيام الدولة بواسطة مجلس قومي مثل اليهود في الداخل والخارج، من أهم القوانين التي صدرت بعد إعلان الدولة، قانون العودة الذي يتيح لأي يهودي أن يترك وطنه الأصلي ويأتي إلى إسرائيل (الوطن القومي)، المهم إن الخلافات مهما كانت حادة فقد ظل سقف الاتفاق على إنشاء الدولة الصهيونية لا يصل إليه أي خلاف.

هذا، ويعتبر وعد بلفور عام ١٩١٧م، هو بلورة ليس لوعد، وإنما هو عقد تم رسميًا بين الحركة الصهيونية وبين الدول الغربية، ويعتبر وعد بلفور عقدًا يوحي لمعاني كثيرة لا يحتاج أطرافها الصهاينة والدول الغربية إلى الإسهاب في شرح التفاصيل، فالعقد قد بدء بحيلة الصياغة حينما أشار إلى عبارة الوطن القومي اليهودي، ولم يقل الدولة القومية لليهود لأجل أن يكون الأمر سهلاً لخداع العرب على أن ليس هناك دولة ستقام على حسابهم، ولذلك لم يعط الزعماء العرب اهتمامًا كبيرًا أو خوفًا بحجم طرد شعب كامل، وكل ما اهتم به ملوك العرب الثلاثة، فاروق ملك مصر، وعبد العزيز آل سعود ملك السعودية، وعبد الله بن الشريف حسين، هو أنهم كانوا يتحفظون على الهجرة اليهودية المتزايدة إلى

فلسطين، واهتموا كثيرًا بخلافاتهم الشخصية والإقليمية، وحينما أشار وعد بلفور إلى السكان المحليين ونعتهم بالجماعات الأخرى، فإنه أنكر وجود الشعب الفلسطيني صاحب الأرض، لذلك سمي وعد بلفور بأنه وعدًا صامتًا بين أصحاب العلاقة.

قبل وعد بلفور كانت الحركة الصهيونية متعثرة مثل سفينة في بحر مائج تتقاذفها الأمواج، وبعد صدور وعد بلفور كان قد هدأ البحر واتضح الميناء الذي عليها أن تصل إليه، كان وعد بلفور أكثر من هذا، لأنه كان يُعبِّر عن خطة ديناميكية منسجمة مع بعضها، وقد أضحت تدور بنعومة ووضوح، فاتفقت الصهيونية المسيحية الساعية إلى التخلص من اليهود الأوروبيين والصهيونية التوطينية التي تريد نقل الفائض اليهودي من أوروبا، والصهيونية الاستيطانية التي تريد بناء المستعمرات في فلسطين، وحتى أعداء السامية، كل هؤلاء كان مفتاح الحل لمشاكلهم هو وعد بلفور.

منذ صدور وعد بلفور راح الجميع يعملون بصمت رغم أن الخلافات الداخلية بين الصهاينة أنفسهم كانت أكثر من خلافات الصهيونية مع الدول الغربية الراعية للمشروع الصهيوني، وكل ما صدر عن الدول الغربية من التزامات تجاه إسرائيل هي بنود مكملة لوعد بلفور بل هي أيضًا وعود يمكن أن نُطلِق عليها وعود بلفورية أو كما هو وعد بلفور!

من الوعود البلفوية التي سبقت وعد بلفور، كان نداء "نابليون بونابرت" سنة ١٧٩٩م الذي خاطب به يهود العالم:

"إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين - وإن لم تكن لهم مواهب المتنبئين مثل أشعياء ويوئيل - قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم، أدركوا أن عتقاء الإله سيعودون لصهيون وهم يُغنّون، وسيُولّد الابتهاج بتَملُّكهم إرثهم دون إزعاج، فرحًا دائمًا في نفوسهم – أشعياء 35/10 (انظر الوثائق في نهاية الكتاب).

هذا، وفي عام ١٨٩٨م وجَّه القيصر الألماني خطابًا إلى هرتزل قال فيه:

"إن صاحب الجلالة على استعداد أكيد أن يناقش الأمر (توطين اليهود) مع السلطان، وأنه سيسعده أن يستمع إلى مزيد من التفاصيل منكم في القدس، وقد أصدر جلالته أوامره بأن تُذلَّل كل الصعاب التي تواجه استقبال وفدكم، وأخيرًا يُحب جلالته أن يخبركم عن استعداده أن يأخذ على عاتقه مسئولية محمية يهودية في حالة تأسيسها، وجلالته حينما يكشف لكم عن نواياه، فهو يعوِّل بطبيعة الحال على مقدرتكم على الكتمان، وكم يسعدني أن أنقل لكم هذه المعلومات، وأتمنى أن تنجح في الوصول إلى القدس في الموعد المحدد، وفي الحقيقة فإن فشل في هذا سيسبب لجلالته خيبة الأمل، وأترك لكم بما تتميزون به من لباقة، أن تقرروا ما إذا كنتم تودون الوصول إلى اسطنبول في الوقت الذي يصل فيه جلالته إليها أم لا". (مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية).

هذا، ولم يكن الموقف الروسي سلبيًا من الحركة الصهيونية، فقد قابل هرتزل وزير الداخلية الروسي "فون بليفيه" عام ١٩٠١م مفوضًا من المؤتمر الصهيوني الخامس، وصدر عن قيصر روسيا التصريح التالي في شكل رسالة وجهها وزير الداخلية الروسي إلى تيدور هرتزل:

"ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظيم هجرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبذ ذلك، وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا".

عام ١٩١٨م أصدرت الحكومة الألمانية أيضًا وعدًا يعطف على أماني اليهود تحت ظل تحالفها مع الخلافة العثمانية، التي بدورها أصدرت وعدًا لليهود بتسهيل عيشهم في فلسطين وفي دولة الخلافة عمومًا، فاستغلت ألمانيا صدور التصريح العثماني المبهم وأصدرت تصريحًا مبهمًا مشابهًا لما أعلنته تركيا، وتجنب التصريح الألماني أن يكون واضحًا حتى لا تغضب تركيا، وقد كانت الحرب العالمية الأولى لم تنته بعد، إلا أن التصريح الألماني جاء متأخرًا رغم أن عدد

يهود ألمانيا كان يفوق كثيرًا عدد اليهود في بريطانيا التي كانت الأقلية اليهودية فيها معارضة للحركة الصهيونية، لعل ذكاء حاييم وايزمان يكمُن في اكتشافه المصلحة الصهيونية وحتمية الاعتماد على الإمبريالية وصعود القوة البريطانية فتبعها بكل قوته وقطع كل علاقاته مع المنظمة الصهيونية ذات الجذور الألمانية.

لا شك بأن وعد بلفور للحركة الصهيونية كان الأجدر من غيره من الوعود لقابلية التنفيذ بسبب أن العصر كان قد تغير، ولوجود آلية لتنفيذه من ناحية وجود الاتحاد اليهودي المتمثل بالحركة الصهيونية، ولنضوج فكرة التخلص من فائض المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا الشرقية، لكن الحديث عن وعد بلفور أخذ معاني ونواحي كثيرة في بريطانيا، فقد أيده كل من لورد بلفور ولويد جورج رئيس الوزراء البريطاني وتشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني، رغم أن هؤلاء كانوا معادين لليهود في بريطانيا وقد أصدروا في ظروف مختلفة قوانين وتشريعات ضد اليهود في بريطانيا بسبب عدم قابلية اليهود الاندماج في المجتمع البريطاني، ومن القول أيضًا بإن سبب وعد بلفور هو عطف حقيقي على اليهود الذين عانوا بسبب التفرقة وحان الوقت لكي يعوضوا بوطن، لكن من الأسباب التي شاع ذكرها لصدور وعد بلفور، هي تمكن "حاييم وايزمان" اليهودي الصهيوني من اختراع مادة "الأستون" الحارقة خلال الحرب العالمية الأولى فكان وعد بلفور مكافأة له.

وحتى نضع النقاط على الحروف، فإن لوعد بلفور أسباب وأهداف استراتيجية غير ما ظهر منه في النص، من تلك الأهداف هو جعل مهاجري أوروبا الشرقية لا يذهبون إلى أوروبا الغربية بهدف الحفاظ على الأمن الداخلي للمجتمعات الغربية، وقد رأينا أن دول أوروبا انجلترا وفرنسا وألمانيا إضافة إلى روسيا، كلها باركت وتعاطفت مع مشروع الحركة الصهيونية، فبريطانيا مثلاً كانت قد أصدرت ما يُشبه وعد بلفور سابقًا، وذلك بعرضها وطن قومي لليهود في أفريقيا الشرقية، وهدفها كان المحاولة لامتصاص حركة الشبيبة الثورية اليهودية إبان الثورة البلشفية في روسيا، فعملت على إلقاء المناشير التي تحمل وتشير إلى

وعد بلفور على تجمعات اليهود في الدول الأوروبية مثل يهود روسيا القيصرية وبولندا وألمانيا والنمسا، وكان الهدف من وعد بلفور أيضًا هو الضغط على حكومة روسيا المؤقتة من أجل عدم توقفها عن الحرب ضد ألمانيا!

كان الوعد أيضًا من أجل إرضاء يهود الولايات المتحدة لعدم ارتمائهم في أحضان ألمانيا، ولأجل حثهم واستمرارهم في المساهمة المالية في المجهود الحربي ضد ألمانيا، هذا ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسوعته إن أثر اليهود في أمريكا لم يكن كما كان متصورًا، وأن المؤيدين للصهيونية من اليهود كانوا ما زالوا قلائل، وأن كل ما ساهمت به أمريكا في الحرب كان ناجمًا عن موقف الحكومة الأمريكية وليس عن الثقل اليهودي فيها في ذلك الوقت، لكن كل هذا كان عبارة عن فوائد جانبية، أما الأهم فقد كان توظيف المادة البشرية اليهودية في خدمة الاستعمار الغربي في زمن الإمبراطورية البريطانية التي كانت بحاجة إلى تأمين قناة السويس وطريق الهند، وقال في هذا حاييم وايزمان، إذا وافقت انجلترا على منحنا فلسطين، فإننا سنحصل على وطن وستحصل هي على سند فعال، وقيل إن وايزمان تفاجأ بإصدار بريطانيا لوعد بلفور رغم أنه كان قد عمل كثيرًا من أجل مثل هذا الوعد مع لورد روتشيلد، وقيل إن بريطانيا هي من بادرت بالاتصال بهم (اليهود) وقد كان في نيتهم العمل من أجل هذا بعد انتهاء الحرب.

مما سبق يُستنتج من وعد بلفور والدوافع التي أنتجته المعلن منها وغير المعلن، وكذلك من الوعود البلفورية الأخرى التي صدرت عن الحضارة الغربية، وعن الدوافع والمبررات التي جعلت الأوروبيين يساندون الحركة الصهيونية، يستنتج أن الفكرة الصهيونية كانت إمكانية كامنة في الحضارة الغربية، وأن وعد بلفور كان عقدًا بين الإمبريالية الغربية وبين الحركة الصهيونية لتبادل المصالح!

إذا كانت إسرائيل هي منتوج الحضارة الغربية العلمانية، فهل كان الغرب سيقبل أن تقام دولة لليهود إلا إذا كانت لخدمة المصالح الغربية بواسطة دولة وظيفية بشرية! قطعًا لا، لذلك كانت الحركة الصهيونية منذ بدايتها حركة علمانية ليبرالية، وكانت استنساخًا لتطبيق الفكر الغربي في المنطقة العربية لأجل أن تظل

هذه الدولة مرتبطة عضويًا بالغرب، على هذا الأساس بـــارك الغـــرب الزعامـــة العلمانية اليهودية للحركة الصهيونية، وعملت هذه الزعامة على علمنة الديانـــة اليهودية من الداخل وقبلت اليهودية من الخارج، لكنها عملت أيضًا بذكاء علـــى زرع بذور العلمنة منذ البداية، فقد استطاعت بتركيز إعلامي إغرائـــي أن تجعـــل الصهيونية بدلاً من اليهودية، فأصبحت التظاهرات المؤيدة والشيكات التي تـــدفع كتبرعات، وصارت تعطى لمن ينجزون عملاً حسب المقولة، "من يعمل يأخذ ومن لا يعمل لا يأخذ"، وها هم الصهاينة قد استطاعوا بعد خمسين عامًا من مـــؤتمرهم الأول أن ينشئوا وطنًا لليهود، وحينما أطلق "تيدور هرتزل" علـــى كتابـــه "دولـــة اليهود" كان يقصد ذلك، وإلا كان يمكن أن يكون اسم الكتاب "الدولة اليهودية" هذا لو كانت الدولة الصهيونية مبنية على الديانة اليهودية، لذلك أضـــحت الأحـــزاب الدينية في الدولة الصهيونية هي أحزاب الأقلية، وليس لها نفوذ الأحزاب الأخرى بل أنها تعتمد في تمويلها على الأحزاب العلمانية التي تحكم، وإن كل قادة الحكـــم في الدولة الصهيونية جاءوا من الأحزاب العلمانية ومن تربوا فـــي الكيبوتســـات الاشتراكية (البلدات الزراعية)، وأكثر من هذا فقد عمل الصهاينة العلمانيون على رفض مقولة شعب الله المختار وقدوم المسيح والألفيـــة، واعتبـــروا أن إحضـــار اليهود كان الهدف منه بناء دولة وحسب، وأن الدولة يجب أن تكون قوية حتـــى تستمر بدون استرخاء أو الاعتماد على التفسيرات التوراتية القديمة، وأن العنف الذي تمارسه ضد الفلسطينيين هو ليس أكثر من دفاع عن النفس بل دفاع عـــن قيم الحضارة الغربية التي تعتبر إسرائيل مرتبطة عضويًا فيهـــا ويريـــد العـــرب محوها، وفي الحقيقة استطاعت الحركة الصهيونية ركوب كل الموجات، الدينيـــة أولاً، والعنصرية ثانيًا، وتوظيف المادة البشرية ثالثًا.

تظهر العلمانية الصهيونية في مصادرها الفكرية المتنوعة والمتعددة والتي تنتمي كلها للأنساق الفكرية العلمانية الغربية، لقد استطاعت الحركة الصهيونية توظيف الخيار بطريقة ذكية حينما وضعت مصير اليهود واليهودية على المحك، فقالت إن نهجها هو إنقاذ اليهود كبشر قبل اليهودية، وحتى تتجاوز ما يمكن أن يواجههـــا

من معارضة دينية، قالت بإنها تزمع إيجاد كمنولث يهودي في فلسطين وهي تعني دولة، علمًا بأن الكومنولث لا يعني دولة مستقلة، وحينما أعطيت اسمًا آخر لتجمع اليهود أيضًا في فلسطين، قالت إنها ستعمل على بناء وطن قومي لليهود وهي تعني أيضًا إقامة دولة! وهنا يقودنا الشك إلى التساؤل، هل كانت الحركة الصهيونية تقوم على خدمة اليهود حينما كانت ترواغ في خطابها السياسي لهم أم أنها كانت تنفذ أجندة للقوى الغربية حتى قبل أن يعرف يهود العالم الغاية من فكرة تجميعهم على أرض فلسطين!

لما كانت الحركة الصهيونية قد استطاعت أن يبقى العلمانيون هم الحكام فيها، فإنها تكون قد أثبتت نجاحها وتفوقت على نفسها في هذا، ويعود السبب الرئيسي في هذا النجاح إلى الخطاب الذي توجهت به إلى اليهود الصهاينة وغير الصهاينة، وإلى الصهيونية المسيحية وإلى الشعوب الأوروبية، وإلى اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، وإلى المؤيدين لعلمانية الدولة الصهيونية، وإلى الداعين إلى يهودية الحركة الصهيونية، ولهذا يبدو أن مجرد التفكير في الخطاب الموجَّه لكل فئة من هؤلاء للعمل على كسبها يحتاج تفسيرًا غير عادي، استطاعت الحركة الصهيونية أن توجه خطابها إلى كل هؤلاء وأن تستوعب اهتماماتهم وأن تدق على الوتر الحساس لكل منهم بواسطة التركيز على عدم رفض ولو ظاهريًا كل ما كان يتعارض مع فكرها العلماني، وإنما جعلت مبررها في وضع جدول أولويتها فكان حجة لها تحت شعار، دعونا أولاً نعمل دولة لليهود.

ولما كان رواد الصهيونية هم اليهود الغربيون العلمانيون وشعبها هم اليهود الدينيون الشرقيون، استطاعت بمساعدة الدول صاحبة المصلحة في خلق الدولة الصهيونية أن تجعل القرار والنفوذ في يد أغنياء اليهود الأوروبيين الذين موَّلوا وأشرفوا على بناء المستعمرات، وعن هذا قال "عبد الوهاب المسيري في موسوعته أيضًا على لسان "هرتزل"، إنه "حقق شيئًا يكاد يكون مستحيلاً؛ الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة، أي اليهود المندمجين في غرب

أوروبا واليهود غير اليهود، والعناصر اليهودية المحافظة أي يهود شرق أوروبا واليهود المتدينين - وقد حدث ذلك بموافقة الطرفين دون أي تنازل من الجانبين ودون أية تضحية فكرية"، كما تباهى هرتزل بمُصالحة أخرى أجراها بين الحضارة الغربية ويهود العالم.. وهكذا كان.

لقد تميز الخطاب السياسي الصهيوني بالإبهام أحيانًا وبعدم الوضوح عن قصد، فاستعمل كلمات متعددة لها نفس المعنى، خاطب كل فئة وتيار بطريقة غير واضحة عوضًا عن أن الفريق الواحد ما كان يعرف الخطاب الذي كان يوجه للصهاينة من التيارات الأخرى، وهكذا أضحت فراغات لا تكشف عن كل شيء، لذلك فإن الأمر منا يحتاج إلى قراءة ما بين السطور، وألا يُؤخذ الاستيطان الصهيوني على أنه مجرد عصابات يهودية استطاعت أن تُبهر العالم وتقيم لها دولة.

ولهذا فمن الخطأ أيضًا أن نفترض أن تاريخ فكرة الحركة الصهيونية قد بدأت في فترة حياة وزعامة تيدور هرتزل فقط، الحقيقة أن الفكرة الصهيونية قد بدأت قبل زمن هرتزل، فقد بدأت منذ أن هدم الرومان الهيكل وتم تشتيت اليهود، منذ ذلك الزمن كان هناك صهيونيتان تضاد بعضهما البعض، صهيونية تعزي ما حدث لليهود بأنه قدر مكتوب سيظل يحيط باليهود ويبقون مكروهين منبوذين ملفوظين من الشعوب الأخرى، وهناك الصهيونية التي ترى أيضًا بأن ما يحدث لليهود من تيه وشتات هو بسبب عدم عودتهم وعيشهم الدائم في فلسطين، من هاتين النبوءتين المزعومتين، وجدت فكرة الصهيونية التوطينية والصهيونية الاستيطانية وبقيتا تتفاعلان وتأخذ الواحدة من الأخرى مؤيدين على مدى الأيام، ومع مرور الوقت توحدت فكرتا الصهيونية بسبب تنقل الجماعات اليهودية من دولة إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى إلى أن خُلق قاسمًا مشتركًا بينهما، وأدى إلى اتفاقهما على هدف تصالحي ومصلحي.. حتى أصبح اليهود مشكلة في المجتمعات الأوروبية.

وقد يسأل قائل، إذا كانت الصهيونية موجودة منذ أن قضى الرومان على الوجود اليهودي في فلسطين منذ القرن الثاني الميلادي، فلماذا لم يظهر الفعل الصهيوني حينما كان هناك فرصة كبيرة لتحقيق الحلم إبان الحروب الصليبية مثلاً؟ الجواب ببساطة يكمن في أن القوى التي كانت تدفع إلى الحروب الصليبية لم تكن مصالحها مرتبطة بوجود نجاح للصهيونية في المنطقة العربية، فمن ناحية أخرى إن الأمور والأهداف كانت مختلفة في أواخر القرن التاسع عشر وخلال فترة الحربين العالميتين، وهي الفترة التي شهدت تعميد للصهيونية المسيحية ووجود للصهيونية غير اليهودية في أوروبا، سواء كانت بهدف استبعاد الشعب المنبوذ من أوروبا أو عن تسامح وعطف بسبب أن تيارات مسيحية متشددة تأخذ بالتفسير الحرفي للتوراة كالبروتستانت!

لذا كانت ميادين الحركة الصهيونية وتطلعاتها ثلاث، الميدان الأوروبي الغربي، وميدان فلسطين، وميدان وجود الجماعات اليهودية في البلاد الأخرى، وليس التعميم هنا بذكر البلاد الأخرى إلا لأن تفاعل الحركة الصهيونية ونشاطاتها لم تكن كما كان تفاعلها وتأثرها في الميدان الأوروبي لأسباب لم تعد خافية، فلم يعد لغزًا معرفة أسباب نشاط الحركة الصهيونية في الميدان الأوروبي بسبب ظاهرة معاداة اليهود والتنافس الاقتصادي وما أتت به الثورة الصناعية، وتصاعد معدلات التنمية الاقتصادية من تقلبات وبعثت من فكر، وخلقت من حوافز وتطلعات مستقبلية في ظل مصالح الدول القومية العرقية في أوروبا، ولم يكن للديانة اليهودية أثر لدى الصهاينة عدا أنهم يطلقون على أنفسهم يهودًا.

من الأسباب التي أدت إلى ظهور الصهيونية غير اليهودية، هو فشل المسيحية الأوروبية في حل مشاكل الأقليات فيها، والأثر العميق لليهودية في التراث المسيحي باعتبار اليهود من قتل المسيح، واقتناع التيار الثائر (البروتستانتية) على الكنيسة الكاثوليكية بالرؤية الألفية لدولة الله على الأرض، ظل هذا تفاعلاً مسيحيًا داخليًا دون أن يكون لليهود التوطينيين أي أثر فيه إلا أنهم نشطوا في محاولة الحفاظ على الإبقاء على الامتيازات التي يحصلون عليها في أوروبا

الغربية، ومن ثم تحالفهم الذي بدا وديًا مع مصالح المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها على إبعاد اليهود المهاجرين من روسيا إلى مكان آخر عن البلاد التي يقيمون فيها، كما أن التغيرات الاجتماعية التي حدثت في أوروبا، أدت إلى تأثر الجماعات اليهودية وخلقت نوع من عدم الاستقرار بسبب فقدهم لمميزات اعتادوا الحصول عليها فيما له علاقة بالمال والأعمال بسبب النهوض الاقتصادي في الدول الأوروبية، وظهور القوانين التي تبصر الناس بحقوقهم، وتنوع وسائل حل مشاكلهم الاقتصادية، وهو ما جعل اليهود والمواطنين يتفقون بعقد صامت على البحث لإيجاد منفعة من الجماعات اليهودية التي لم يعد لها نفع هناك، أضف إلى ذلك المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية الذين كانوا ثقلاً اجتماعيًا وعالة على المجتمعات بسبب تدني مستوى تحضرهم مقارنة بالمجتمعات الغربية نفسها، والذين فشلوا في الانصهار في المجتمعات الجديدة ما أدى إلى عزلهم في مناطق خاصة بهم (الجيتوات).

لقد كان لظهور حركة الحاخامات الإصلاحية بين اليهود أنفسهم، أثر لا يقل عما ذكر، فجعل اليهود أنفسهم يتطلعون في الجهات المختلفة للبحث عن نوع من الاستقرار الروحي، وأدى هذا أيضًا إلى تطلع النخبة إلى البحث عن مشروع بحجم أخذ كل الاعتبارات التي ذُكرت في الحسبان خصوصًا وأن ظهور المثقفين اليهود من المهاجرين الجدد الذين ينتمون إلى العلمنة ويُطلق عليهم الأغيار يهودًا بالمفهوم القديم، وهؤلاء صاروا يبحثون لهم عن هوية أيديولوجية، لهذا فأي مشروع مغري أفضل غير برنامج الحركة الصهيونية الذي وضعت أهدافه المادية والمعنوية رسميًا في المؤتمر الصهيوني الأول.

إن أهم الأسباب قاطبة التي دفعت إلى تشجيع إيجاد الحركة الصهيونية، هو الدور الإمبراطوري الإمبريالي الاستعماري الذي أصبح العالم بأسره ساحة لأنشطته العسكرية ومناطق لنفوذه خصوصًا بعد الحرب العالمية الأولى حينما سيطرت الإمبراطورية البريطانية، وهزمت ألمانيا وورثت بريطانيا معظم المستعمرات الألمانية ومناطق دولة الخلافة العثمانية، ولم يكن لحركة القومية العربية ولا

الحركة الوطنية الفلسطينية زخم قومي ووطني يستطيع مقاومة دور بريطانيا في المنطقة، وبالتالي فإن الصهيونية ركبت ظهر الإمبريالية الغربيـــة التـــي رأت أن إبعاد من لا نفع لهم مصلحة لخدمة تلك القوى الاستعمارية خـــارج المجتمعـــات الأوروبية، من هنا وُجِدَ التوافق والانسجام بين الأطراف الكثيرة.

إن من المعلوم أن الصهيونية التوطينية ظهرت في أوروبا الغربية حيث الأقليـــة اليهودية التي اندمجت في المجتمعات وأخذت بالنهج الغربي للحضارة الحديثـــة، وصارت مصالحها مرتبطة عضويًا بالمصالح الغربية، وهذا ما أعانها كثيـــرًا أن يكون لها حرية الحركة والمرونة والمقدرة علـــى طـــرح خطابهـــا الأيـــديولوجي فصادقت الزعامات الأوروبية واستغلت نفوذها الاقتصادي، ففاوضت الحكومـــات المحتاجة دائمًا لتحقيق الطموحات والتفوق.

إن مما ساعد على نهوض الحركة الصهيونية الحديثة وانبعاثها من أوروبـــا، إن الفضل يعود إلى تيدور هرتزل ومن اقتنع به أمثال "نوردو" نائبه الذي كان يجاهر بإلحاده، وهو الذي قال إن كتاب هرتزل "دولة اليهود" هو التـــوراة فـــي القـــرن العشرين، استطاع هرتزل الذي عاش في الغـــرب بـــين اليهـــود التـــوطينيين أن يكتشف حاجة الغرب ويهود الغرب للتخلص وبسرعة من يهود شـــرق أوروبـــا، واكتشف حتمية التحرك داخل إطار الإمبريالية الغربية التي يمكنها وحدها أن تنقل اليهود خارج أوروبا وأن تستخدمهم مقابل حماية الكيان الذي يقيمون فيه، لقـــد استطاع هرتزل أن يرضي جميع الأطراف اليهودية فيما له علاقة بإيجاد مشروع نقل الفائض اليهودي عن كاهل اليهود التوطينيين الأوروبيين، واســـتطاع إيجـــاد المكان المناسب الذي اتفق عليه لتوطين مهاجري روسيا من المتدينين في أرض التوراة، واستطاع إعطاء شيء من الحرية لليهود الذين يحبون الهجرة إلى بـــلاد العالم الجديد (أمريكا) لكي يظلوا وسيلة دعم فـــي المســـتقبل للـــوطن اليهـــودي الجديد، استطاع هرتزل أن يُقنع معظم الجماعات اليهودية أن الحل الوحيـــد هـــو إيجاد وطن لليهود بغضِّ النظر أين يكون الوطن، وبعدما رجحت كفـــة أن يكـــون الوطن فلسطين صار التركيز على فلسطين وصار تلميع المبررات وخلق الأسباب

وإيجاد الحجج الدينية والتراثية التي تجعل تحقيق هذا الهدف مقنعًا ومقبولاً من معظم اليهود وبدعم غربي إمبريالي متحكم بآلية التنفيذ.

من هنا وبعد أن انتقل مركز الإمبريالية من لندن إلى واشنطن، وضعت كثير من الخلافات الصهيونية أوزارها، وأصبح معظم اليهود تحت حماية أكبر قوة على سطح الأرض وصار الولاء للدولة الصهيونية لا يتعارض مع الولاء للوطن الذي يُقيم فيه اليهودي، وأصبحت ظاهرة معاداة السامية أكبر تهمة يمكن أن يوصم بها بشر، وانحسر دور المعارضين للحركة الصهينوية من اليهود كثيرًا، وظهرت الصهيونية التوفيقية لكي تحل مكان التوطينية والاستيطانية أو تجمع بينهما، وتم الاكتفاء بجعل الدولة الصهيونية مركزًا أخلاقيًا للتراث اليهودي الذي يعني الإنسان اليهودي أكثر من اليهودية.

لا شك بأن الصهيونية قد فقدت حماس الكثيرين من اليهود بعد شيوع الحداثة وانتشار ظاهرة العولمة وفقدان دور المركز، ومع نمو حركة المقاومة الفلسطينية واشتداد عودها وما يقوم به الشعب الفلسطيني من انتفاضات شبه مستمرة، فقد أدى هذا إلى زعزعة مكانة الحركة الصهيونية في نفوس كثير من اليهود بسبب سلوك الدولة الصهيونية وما تقوم به ضد الفلسطينيين من عنف وسلب للحقوق، حتى أن الهجرة اليهودية أضحت أسبابها شخصية ونفعية وليس أكثر.

وهنا لا بد من الإشارة عن وجود الصهيونية في الدول التي لعبت دورًا بارزًا في تاريخ الحركة الصهيونية لكي تتضح معالم الصورة أكثر:
لقد كانت ألمانيا من أهم الدول للصهيونية التوطينية، وكان للحركة الصهيونية دور كبير في ألمانيا، فمعظم اليهود الألمان كانوا من النوع الذي يحبذ الاستمرار في العيش بألمانيا، ولذا كان العداء الألماني لهم شديدًا، كانت ألمانيا كقوة أوروبية حديثة تعبر عن زخم الحداثة الأوروبية، وكانت تتطلع إلى دور استعماري منافس لبريطانيا وفرنسا في العالم، ولهذا كانت في حاجة إلى التوظيف البشري الذي يمكن أن يقوم به اليهود لاستكشاف البلاد الأخرى والتعرف على كيفية مد النفوذ الألماني فيها، كان اهتمام وتركيز الحركة الوطنية

في ألمانيا يُعبر عن مصلحة الحركة الصهيونية في الاستفادة لما للدور الألماني من أثر لدى الخلافة العثمانية الصديق لألمانيا، ولذلك سعت ألمانيا لدى السلطان العثماني لحماية اليهود في فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى حتى أن "ديفيد بن جوريون" قد اعتقلته القوات البريطانية حينما احتلت فلسطين أثناء الحرب باعتباره أحد رعايا الدولة المعادية، بعد الحرب العالمية لم ينتهي الدور الصهيوني في ألمانيا حيث تواجد التوطينيين اليهود، وبعد الحرب العالمية الثانية أعاد اليهود عمل جمعياتهم ولعبوا دورًا رائدًا في موضوع التعويض الذي فرض على ألمانيا لليهود بصفة عامة وللدولة الصهيونية.

أما تواجد اليهود تاريخيًا في فرنسا، فإن معظمهم قد أتوا من روسيا إلا أنهم من نوع اليهود التوطينيين، ومعظم من ولدوا في فرنسا، فكانوا غير مبالين بالحركة الصهيونية، ولم يتحمسوا كثيرًا لها بسبب قلة عددهم، وكونهم لا يودون الذهاب إلى أرض يجهلونها، عوضًا عن عدم رغبتهم في خسارة المركز الاجتماعي والاستقرار الاقتصادي الذي وصلوا إليه، ولما كان المذهب الكاثوليكي هو الشائع في فرنسا فإن الصهيونية قد بدأت بمساعدة البروتستانت في بريطانيا، لهذا كان الصهاينة أقلية في فرنسا، واستطاع هؤلاء مع البارون "إدموند دي روتشيلد" أن يساهموا في بناء بعض المستعمرات اليهودية في فلسطين، هذا بالإضافة إلى تأسيس الجمعيات والاتحادات الداعمة للمشروع الصهيوني.

كان من أهم الصهاينة في فرنسا من غير الصهاينة اليهود "نابليون بونابرت" الذي قام بالحملة على مصر ووصل مدينة عكا في فلسطين فحاصرها لمدة ستة شهور، ولما فشل في احتلالها عاد جيشه إلى مصر منهوك القوى مصابًا بالأوبئة، وقال قولته الشهيرة، "تحت أسوار عكا دفنت آمالي في الشرق"، ثم جاء "أرنست لاهاران" حينما انتعشت الصهيونية غير اليهودية في أيام إمبراطورية نابليون ثالث عام ١٨٥٢م حينما أصبح النشاط الاستعماري على أشده، فكان من أهم زعماء الصهيونية غير اليهودية في تلك الحقبة أرنست لاهاران السكرتير الخاص لنابليون الثالث، كان أرنست لاهاران يؤيد فكرة احتلال المشرق العربي،

وكان قد وضع كتابًا عام ١٨٦٠ م، اسمه "المسألة الشرقية اليهودية - الإمبراطورية المصرية وإحياء القومية اليهودية"، استعرض فيه الاستيطان اليهودي في فلسطين ومزاياه.

وفي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى صار اهتمام فرنسا أكثر بما كان يحدث في المشرق العربي بعد أن كان اهتمامها بالمغرب العربي فقط، خصوصًا وأن غيوم الحرب العالمية الثانية راحت تبدو في الأفق، وتوجَّه الكثير من اليهود الألمان إلى فرنسا خصوصًا يهود الألزاس واللورين (المنطقة الفرنسية المحاذية للحدود مع ألمانيا)، خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها وخصوصًا بعد تسلم الاشتراكيين الحكم، اهتمت فرنسا كثيرًا بمساندة الحركة الصهيونية فكثرت الجمعيات والمؤسسات والاتحادات الصهيونية التي كانت تدعم الاستيطان اليهودي في فلسطين، وأضحت فرنسا من أكثر الدول التي تساند الدولة الصهيونية، وأضحى التفريق بين الجمعيات اليهودية والصهيونية في فرنسا ليس سهلاً بسبب تشابه شعاراتها وأهدافها ودعوتها لمساندة إسرائيل علنًا.

في انجلترا كان نشوء الحركة الصهيونية الحقيقي بسبب الدور الكبير الذي كانت تقوم به بريطانيا عالميًا كإمبراطورية استعمارية، كما أن المذهب البورتستانتي موطنه الأساسي هو بريطانيا فقد ظهر في انجلترا قبل وجود هرتزل وغيره، فمن المفكرين والمنظرين والمؤمنين بالنبوءات التوراتية كان أمثال شافتسبري وأوليفانت قد وجدوا قبل وجود "بنسكر" وغيره من صهاينة اليديشية الروس، وتوصل هؤلاء إلى الأطروحات الصهيونية، إلا أن الانصهار الأساسي في الحركة الصهيونية في بريطانيا قبل اهتمام يهود بريطانيا أنفسهم بالصهيونية كان من قبل الساسة البريطانيين الذين أصلاً كانوا يعادون الوجود اليهودي في بريطانيا، ويفضلون التخلص منه بأسرع الطرق وقدموا أنفسهم كأنهم يتعاطفون مع اليهود، كان هؤلاء يتمنون أيضًا نجاح المشروع الصهيوني في المشرق العربي لكي يظل النفوذ البريطاني مستقرًا هناك.

حينما وصل هرتزل إلى لندن وراح يُبشر بالحركة الصهيونية عام ١٨٩٦م، وبعزمه على عقد مؤتمر صهيوني في مدينة ميونخ بألمانيا قبل أن ترفض ألمانيا عقد المؤتمر على أراضيها، ومن ثمَّ تم اختيار بازل بسويسرا لعقده فيها، لم يجد هرتزل آنذاك ترحيبًا من يهود بريطانيا الذين رفضوا تبديل وطنهم، وإنما وجد الترحيب من اليهود المهاجرين من روسيا فقط، وحين عقد المؤتمر عام ١٨٩٧م لم يحضر من زعماء اليهود في بريطانيا سوى عدد قليل! بعد ذلك سعت الصهيونية لدى الحكومات المتتالية والزعماء في بريطانيا وبالدعاية، وعلى إثر ذلك وجدت الجمعيات والاتحادات الصهيونية أن اليهود البريطانيين لم يكونوا على استعداد لترك بلدهم بريطانيا، فأيدوا مشاريع الاستيطان اليهودي في منطقة العريش بصحراء سيناء المصرية وفي أوغندا.

وحينما عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن حضره ٢٨ مندوبًا عن ٣٨ جمعية يمثلون الاتحاد الصهيوني الإنجليزي، وفي حركة ذكية من منظمي المؤتمر وزَّع المشاركون بالمؤتمر نشرات على أعضاء مجلس العموم البريطاني توضح أغراض الصهيونية وتدعوهم إلى التعليق عليها، قال هرتزل عن تلك الخطوة بأنها "أذكى فعل قامت به حركتنا منذ فترة بعيدة".

وبعد موت هرتزل سنة ١٩٠٤م وتولى "ولفسون" زعامة الحركة الصهيونية انتقل مركز الحركة الصهيونية من ألمانيا إلى بريطانيا، وظهر فيها حاييم وايزمان وكثير من زعماء الصهيونية من الشرق والغرب، الكل أدرك أهمية دور بريطانيا في مستقبل الحركة الصهيونية خصوصًا وأن بريطانيا زاد اهتمامها بالمشرق العربي بسبب تدفق البترول بغزارة من تلك الأرض، أما خلال الحرب العالمية الثانية فقد حامت الشكوك نحو اليهود البريطانيين، خصوصًا وأن كثير من زعماء اليهود الألمان كانوا قد لجأوا إلى بريطانيا، فذهبت الشكوك تحوم حولهم خوفًا أن يكون بين اليهود من هم جواسيس للنازية.

أما تاريخ الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان مختلفًا عن تواجد الحركة الصهيونية في البلاد الأخرى، كان أول من نادى بالمشروع

الصهيوني في الولايات المتحدة، هو الرئيس الأمريكي "جون آدمز" عام ١٩١٨م، فقد نادى بأن يصبح اليهود أمة مستقلة، ولم يكن يبلغ عدد اليهود آنذاك أكثر من أربعة آلاف، ولم يكن لهم جمعيات أو مؤسسات ضاغطة على الحكومة الأمريكية بعد، وهذا إن دل على شيء فإنما كان يدل على أن المجتمعات المتشابهة تعطف على بعضها، ذلك كون المجتمع الأمريكي ذو ثقافة استيطانية أيضًا، هذا ولم يبدأ تاريخ تواجد الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة فعليًا إلا في ثمانينات القرن التاسع عشر، فقد وصل اليهود الروس ومعهم عاداتهم وتقاليدهم وحتى جمعياتهم مثل جمعية أحباء صهيون وما شابه، وبعد ذلك أصبح لهذه الجمعيات فروع في الولايات وفي المدن الأمريكية، ثم تكوَّن بعد ذلك المؤسسات والجمعيات أمثال جمعية صهاينة نيويورك التي عقدت مؤتمرًا في عام ١٨٩٨م ونتج عنه تكوين اتحاد الصهاينة الأمريكيين، وتكونت عصبة الجمعيات الصهيونية في الولايات الشمالية، ثم اتحدت جميع المنظمات الصهيونية لتكوِّن اتحاد صهاينة نيويورك الكبرى، وازدادت أهمية وجود اليهود التوطينيين بالولايات المتحدة الأمريكية فقام كل من "شماريا ليفين" و"بن جوريون" و"سوكولوف" و"بن زفي" من زعماء الصهيونية الاستيطانية، قاموا بتوطيد العلاقة مع يهود أمريكا لضمان تأييدهم المعنوي والإعلامي وتقديم الدعم المالي قدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، هذا بالإضافة إلى التأثير على السياسة الخارجية لأقوى وأغنى دولة على ظهر الأرض في هذا الزمن، ومع تغيُّر مركز الثقل الإمبريالي من بريطانيا وانتقاله إلى أمريكا، ازدادت أيضًا أهمية الولايات المتحدة وبالتالي الحركة الصهيونية التوطينية فيها.

في المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين عام ١٩٤٦م، قام بن جوريون وأبا "هليل سيلفر" بمعارضة محاولات حاييم ايزمان الرامية إلى الرضوخ للسياسة البريطانية، وعلى الأثر تمت استقالة وايزمان، وتبوأ بن جوريون رئاسة المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية، وأصبح سيلفر رئيسًا للفرع الأمريكي للوكالة، وبدأت

مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الصهيونية استمرت حتى تكوين دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م.

إن من الملاحظ أيضًا، بأنه كانت هناك صعوبات في البداية واجهت اليهود الأمريكان إلى أن اطمئنوا بأن الصهيونية والمصلحة الأمريكية هما شيء واحد، بمعنى أن صهيونية يهود الولايات المتحدة نابعة من أمريكيتهم وليس من يهوديتهم، ولهذا لم يهاجر من يهود أمريكا إلى فلسطين إلا قلة بسبب طيبة إقامتهم وعيشهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا، وإن المتتبع للحملات الصليبية وأسبابها يجد أن نفس الدافع هو الذي جعل القوى الغربية تقوم بالمشروع الصهيوني في فلسطين، فلسطين دائمًا هي محط أنظار القوى والإمبراطوريات كونها ملتقى الطرق إلى الشرق وموقعها أعطاها هذا الاهتمام بسبب وجودها بين أفريقيا وأسيا، هذا عوضًا عن أنها مركز للأديان السماوية الثلاثة لما للقدس من مكانة خاصة، لهذا تشابهت الدوافع التي جعلت القوى الغربية تدفع في اتجاه التوظيف البشري في الحملة لاحتلال فلسطين، فبدل أن كان التوظيف البشري هم المسيحيين أيام الحروب الصليبية، أصبح في حالة الوطن القومي اليهودي هم المادة البشرية للتوظيف، وكلاهما يقوم بعمل واحد هو جعل الهيمنة الغربية هي صاحبة النفوذ في المنطقة، وهو ما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الصهيونية الأوروبية وُجِدت قبل الصهيونية اليهودية أو كما أشرنا في غير مكان، لولا الأولى ما وُجدت الثانية، لكن الأمر لا ينتهي عند رغبتنا في التأكيد على التشابه بين الحملات الصليبية وحملة الوطن القومي اليهودي الذي توج بقيام الدولة الصهيونية، نود أن نقول هنا أيضًا إن التشابه بين حملات الفرنجة (الصليبية) وبين قيام الدولة الصهيونية ربما سيتأكد مرة ثانية حينما نتذكر إلى ما آلت إليه نهاية الحملات الصليبية حين تم القضاء عليها.

الصليبيون قدموا إلى الشرق أيضًا متسلحين بهدف هو السيطرة على هذه المنطقة من العالم، واستطاعوا خلال جيل أو جيلين أن يبنوا لهم إمارات وممالك على منطقة هي أكبر من مساحة فلسطين، وعلى ساحل من البحر الأبيض

المتوسط أطول من ساحل فلسطين، وأكثر من ذلك فقد احتلوا القدس أيضًا، لكنهم مضوا في غيهم ولم ينصتوا لعروض السلام التي قدمها أهل المنطقة، وبقوا معتمدين على القوة المؤقتة والحماية والمدد الخارجي إلى أن ذهب جيل الغزاة الذي ترك خلفه جيلاً ضعيفًا لم يتدبر الأمور جيدًا، أضف إلى ذلك أن مصادر المدد الخارجي تغيرت وقلت ونضبت في فترة لاحقة، في مقابل ذلك حدث في نفس الظروف تململ إسلامي في المنطقة، فظهرت قيادات إسلامية من أمثال "صلاح الدين الأيوبي" و"الظاهر بيبرس"، واستطاع المسلمون أن يصفوا الإمارات الصليبية واحدة بعد الأخرى إلى أن لم يبق منهم سوى الآثار التي يزورها السياح في هذا الزمن، وما زال ما قام به العرب المسلمون من القضاء على الصليبيين محفورًا في ذاكرة أهل المنطقة.

من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل الغزو الصليبي للمنطقة، ليس قلة العون المادي بل كان قلة المدد البشري من المهاجرين، فخلال الحملات الصليبية كان اندفاع الأوروبيين كبيرًا للمشاركة في غزو المنطقة تحت شعار تحرير مدينة القدس لما لها من مكانة في نفوس المسيحيين، علمًا بأن معظم الحملات الصليبية كان يقوم بها المسيحيون الكاثوليك، أما مسيحيو الشرق فلم يكونوا طرفًا في الغزو الصليبي بأية صورة من الصور، وهل يغزو الإنسان وطنه، ما نود قوله إن ملوكًا وأمراء ونبلاء تقدموا الحملات الصليبية يوم قدومها لاحتلال الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، واستمرت الغزوات واحدة تلو الأخرى إلى أن توقفت تمامًا وتوقفت الهجرة التي كانت العنصر العام لإبقاء مشروع الغزو الصليبي حيًا من ناحية التحديث والتواصل مع أوروبا، لهذا نجد أن كل زعماء الدولة الصهيونية ومنظريها يحثون دائمًا على إبقاء الهجرة اليهودية مستمرة إلى أرض الميعاد المزعومة، وكلهم يحذرون بأن وقف الهجرة هو نهاية الدولة الصهيونية، يبدو أنهم استوعبوا درس زوال الإمارات الصليبية التي غزت نفس المنطقة بنفس الدوافع.

التاريخ الزمني والمقدس:

لو تعمقنا في تاريخ الأمم نجد أن المصريين ربما هم أول من أنشأ دولة ووضع القوانين ووحد البلاد، أو كما فعل الملك "مينا" قبل أكثر من ٥١٠٠ ق.م حين أسس الأسرة الفرعونية الأولى، تشير أراء كثير من المؤرخين بأن التصور والسحر والأساطير قد وفر للمصريين في العصر الفرعوني أدوات لبناء الدين والدولة وجعل الحياة أكثر حيوية، فهل هذا مثلاً قد أعطى الحق للمصريين بأن يعتبروا أنفسهم أفضل الأمم في العصر الحديث لأنهم أول من أسس دولة أو أن شرائعهم القديمة يتوجب أن تكون مقدسة لا تناقش، إن حاخامات إسرائيل اليوم يتصورون بأن الإله قد حل بالشعب اليهودي فأصبح شعبًا مختارًا وكل ما يفعله الصهيوني بالآخرين من البشر سواء كان خيرًا أم شرًا هو خير، وعلى الآخرين أن يقبلوه لأنه مقدس ومن وصايا الرب، ولهذا فإن تاريخهم مقدس لا يناقش كما يناقش التاريخ الزمني عند البشر الآخرين.

لذلك فاليهود لا يريدون الخلط بين تاريخهم المقدس وبين التاريخ الزمني لمن عداهم من الأمم الأخرى، التاريخ الذي ورد في القرآن الكريم هو تاريخ مقدس عند المسلمين لأنه يصلح لكل عصر ويهدف إلى هداية البشر، لهذا فإن قصص الأنبياء مثلاً كما يبيّن الدكتور "علي عبد الواحد وافي" ليست كاملة، وإنما تم اختيار أحداث معينة ذات دلالة، حتى يتضح الدرس الأخلاقي وحتى تظهر الموعظة، أما التاريخ الزمني فهو مجال الفوضى لأن فيه النهوض والسقوط والخير والشر ويكافأ المصيب والناجح، ويعاقب المخطيء، وأما التاريخ المقدس فهو موعظة ومعايير يحاكم بها التاريخ الزمني، لهذا نجد أن الصهاينة يذهبون بعيدًا حينما يعتبرون بأن الإله قد حل في كل تواريخهم وكل ما كتبه حاخاماتهم بما في ذلك التوراة وكل تفاصيل الأحداث التي كانوا طرفًا فيها حتى يومنا الحاضر، وإن جميع التفاصيل التي يذكرونها في مخطوطاتهم هي تاريخ زمني ومقدس في نفس الوقت، لذلك هم حريصون أن يبقوا هذه الصفة على تاريخهم،

لهذا هم يكتبون كل قصصهم وأحداثهم بطريقة مفصلة حتى يغطيها الطابع المقدس، وليس مسموحًا لأحد بأن يطعن بما يقولون أو يطالب بتصحيحه، ومن يقترب منه تطاله تهمة معادة السامية التي وضعوها في موقع أولى درجات الإنسانية وحقوق الإنسان، فهم دائمًا المظلومون من كل البشر وهم المتعالون على كل البشر وهم الذين يقدسهم الرب فاختارهم شعبه المختار.

يتحدث الصهاينة أيضًا عن المسألة اليهودية كما لو كانت أمرًا فريدًا، وعن الدولة اليهودية كما لو كانت ليس كمثلها شيء، وعن الهولوكوست باعتباره أمرًا فريدًا حدث لليهود وحدهم، يسمي الدكتور "عبد الوهاب المسيري" هذه الظاهرة بالأيقنة أي تتحول الواقعة التاريخية إلى ما يشبه الأيقونة، يتعبد الإنسان أمامها. أي أن الإله حل فيها فتألهت، علمًا بأن اليهود ليسوا وحدهم في التاريخ من تعرض للظلم فسواء حدث لهم الظلم في أي بلد فإن هذا قد حدث للآخرين، ودائمًا يحدث خصوصًا للأقليات وتلك سُنة الحياة على الأرض، وهذا هو الإنسان رغم رقيه وغزوه الكواكب الأخرى فإنه ما زال يقيم الحروب ويقتل ويظلم، فلماذا فقط يعتبر ما يحدث لليهود من ظلم هو فقط ما يعتبر محل تقديس ويجب ألا يقارن به شيء من أحداث الظلم التي تقع على الآخرين.

لهذا من المفروض لأجل أن تتم المساواة بين بني الإنسان، أن يوضع ما حدث لليهود في سياق التاريخ الزمني، ويجب إزالة هالة التقديس عنه، وإلا ماذا نعتبر ما حدث للسكان الأصليين في الأمريكيتين وما حدث في فيتنام وما حدث في هيروشيما وما حدث للفلسطينيين وما حدث لغير هؤلاء، ما حدث لليهود في روسيا القيصرية ليس حتمي وما حدث لليهود في ألمانيا هو ليس حتمي أيضًا، ولم يكن شيئا مطلقًا كان لا بد أن يحدث.

لهذا فإن مشكلة الصهيونية وافتراءها وتزمتها، هي أنها تطالب بالكثير لأجل أن تحصل على القليل، وإذا لم يوجد رادع لها فإنها تأخذ كل شيء، في العصر الحالي ينظر الصهاينة على أن احتلالهم لفلسطين ليس اغتصابًا، وأن المقاوم

الفلسطيني إرهابي، وإنهم مهما عاثوا ظلمًا وسفكوا دماء الآخرين فإنهم يرون أن ذلك هو دفاع عن النفس بل كيف لشعب مقدس ومتأله أن يعي حقوق الغير؟

في الآونة الأخيرة بعد أن صار يتضح للكثيرين من اليهود حقيقة ما يفعله أبناء جلدتهم من الإسرائيليين صاروا يتحدثون أحيانًا عن الحدود وعن اقتسام الأرض، وإن سألتهم لماذا هم في فلسطين ما دام أهلها موجودين، يكون ردهم نحن موجودون فحسب ولا يتحدثوا عن السلاح، ووجدوا ضالتهم بأن يصبغوا إسرائيل بصبغة دينية ملحوظة، صارت معظم شروطهم تشير على أن إسرائيل هي دولة يهودية بدلاً من قولهم السابق بإنها صهيونية، وهذا التخبط في الفلسفة الصهيونية له دلالاته الانهزامية بالنسبة للنظرية الصهيونية لأن الأساس بني على باطل.

تيدور هرتزل:

"يا له من مجد ينتظر هؤلاء الذين يدافعون عن القضية دون أنانية، أخيرًا سنعيش أحرارًا على أرضنا ونموت بسلام في وطننا، سيتحرر العالم بحريتنا، وسيتغنى بثروتنا، ويكبر معنا، وكل محاولة نجريها هناك لتحقيق رخائنا، سوف تنعكس بقوة وفائدة لصالح الإنسانية".. "تيودور هرتزل".

تيودور هرتزل هو صحفي يهودي نمساوي، يُعتبر مؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة، اسمه العبري "بنيامين زئيف"، ولد في المجر عام ١٨٦٠م لأسرة ثرية، وكان له ثلاثة أسماء: الاسم الألماني "تيودور"، والعبري "بنيامين زئيف"، والمجرى "تيفا دارا"، التحق بمدرسة يهودية حينما كان عمره ست سنوات وأمضى أربع سنوات فيها، ثم انقطع عن الدراسة في المدرسة اليهودية، وحينما بلغ الخامسة عشر عامًا من عمره، التحق بالمدرسة الثانوية الفنية ثم بالكلية الإنجيلية سنة ١٨٧٦م وهناك تلقى تعليمًا يطابق روح التنوير الألماني اليهودي السائد في ذلك الزمن، تعليمًا كان يغلب عليه الطابع الغربي المسيحي وتخرج سنة ١٨٧٨م، وفي نفس السنة انتقلت أسرته إلى مدينة فيينا بسويسرا، والتحق

بالجامعة وحصل على دكتوراة في القانون الروماني سنة ١٨٨٤م، عمل بالمحاماة لمدة عام ثم كرس حياته للأدب والتأليف ونشر ابتداء من العام ١٨٨٥م مجموعة من المقالات وبعض المسرحيات التي لم تلاقي نجاحًا كبيرًا.

تيودور هرتزل ١٨٦٠ – ١٩٠٤م

Theodor Herzl

قبل بروز نجم هرتزل كانت الهجرة اليهودية تتبع الأسلوب التسللي. الاعتماد على الجهود اليهودية فقط، لهذا كانت الهجرة بطيئة لشح الإمكانيات المادية وعدم وجود قوى كبرى عالمية تتبنى مشروع الاستيطان، يعتبر هرتزل هو من وضع نهاية للصهيونية التسللية وجهودها الطفولية، كونه نجح في تطوير الخطاب الصهيوني المراوغ، كما نجح في إبرام العقد الصهيوني الصامت بين العالم الغربي والمنظمة الصهيونية باعتبارها ممثلاً غير منتخب ليهود العالم، وهو ما جعل توقيع وعد بلفور؛ أهم حدث ممكن في تاريخ الصهيونية، وقد

خرجت كل الاتجاهات الصهيونية من تحت عباءته أو من ثنايا خطابه المراوغ وكما سنلمس في صفحات الكتاب الذي يقلب صفحاته بذاته جريًا على طريقة هرتزل التي اتبعها في خطابه المراوغ عسى أن يجد القاريء شيئًا غير عاديًا يُستفاد منه.

كانت شخصية هرتزل المميزة التي جعلته يتفوق على نفسه قد أهَّلته بأن يكون جسرًا موصلاً بين العالم الغربي والجماعات اليهودية فيه، فقد كان مثقفًا ومتحضرًا وشابًا ويجيد معظم اللغات الأساسية الغربية، الإنجليزية والفرنسية والألمانية والمجرية ولم يكن يجيد العبرية بطلاقة، كان هرتزل يهوديًا غربيًا مندمجًا لم يبق من يهوديته سوى قشرة، أي أنه يهودي غير يهودي، ومع ذلك فهو يُصنف على أنه يهودي، قال المفكر الصهيوني "جيكوب كلاتزكين" المولود في روسيا، إن هرتزل هو ثمرة الوعي الإنساني العالمي (أي الغربي) لا ثمرة وعي ثقافي يهودي منحط من شرق أوروبا، وأن القشرة اليهودية السطحية في تكوين هرتزل، هي التي أكسبته الشرعية أمام جماهير شرق أوروبا اليهودية وأظهرته بمظهر اليهودي الغربي العائد إليهم، ولهذا فقد اعتبروا عودته إحدى علامات أخر الأيام.

Alfred Dreyfus ألفريد دريفوس ١٨٥٦ – ١٩٣٥ م

اشتغل هرتزل أيضًا بالصحافة حيث عمل في باريس كمراسل لإحدى الصحف المهمة آنذاك هي "نويه فرايه براسه" من ١٨٩١م إلى ١٨٩٦م"، وهنا بدأت تتشكل أفكار هرتزل الصهيونية بعد أن عايش مسألة "ألفريد دريفوس" في فرنسا وتابع أحداثها في مراسلاته الصحفية في فترة ازدادت فيها معاداة السامية، في عام ١٨٩٤م اتهم الضابط اليهودي في الجيش الفرنسي، الكابتن "ألفريد دريفوس ١٨٥٦ – ١٩٣٥ م" بالخيانة كعميل للألمان، هو ضابط فرنسي صادف أنه يهودي، تم القبض عليه في ١٥ أكتوبر عام ١٨٩٤ م بتهمة سرقة وثائق سرية عسكرية وتسليمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لصالح ألمانيا، وحوكم محاكمة سرية، وفي ٥ يناير عام ١٨٩٥ م جُرد من ألقابه العسكرية وأهين علنًا في مدرج الكلية الحربية، في عام ١٨٩٦ م أعيد النظر في قضيته وتمت تبرئته، ويقال إن هذه القضية هي من أهم أسباب توجه هرتزل نحو فكرة الصهيونية واهتمامه بعلاج مشكلة اللا سامية.

خلال فترة اتهام دريفوس شهد هرتزل الفرنسيين خلال المظاهرات يهتفون بالموت لليهود في فرنسا التي تعتبر وطن الثورة التي تنادي بحقوق الإنسان، وبدا له بأن هناك ليس سوى حلاً واحدًا هو أن يهاجر اليهود إلى وطن يعتبر ملكًا لهم، وهكذا فإن قضية دريفوس أصبحت واحدة من المقومات الأساسية في نشأة الحركة الصهيونية السياسية، فقد رأى هرتزل أن الكره لليهود خلال محاكمة "ألفريد دريفوس" أعمق من قضية نقيب في الجيش الفرنسي من أصل يهودي متهم بالخيانة، وأن المجتمع الفرنسي بعد مائة سنة من الثورة الفرنسية التي رفعت شعارات حقوق الإنسان ها هو يطالب بالموت لليهود.

من هنا يمكن القول بإن هرتزل لم يكن توجهه الصهيوني هو العقيدة الدينية وما تحوي من نبوءات تحريفية مثل أرض الميعاد، وشعب الله المختار، وكل ما له علاقة بفلسطين، وخير دليل على ذلك أن هرتزل حينما يتحدث في كتابه "دولة اليهود" عن وطن لليهود في الأرجنتين مثلاً، فهو يقول ما معناه (وضع بدايته

على صورة سؤال)، ما الأفضل فلسطين أم الأرجنتين؟ وأكمل قائلاً سيكون الاختيار للجمهور اليهودي| إن الأرجنتين تعتبر من أجود أنواع التربة في العالم، وهي أرض واسعة وسكانها متباعدين بسبب مساحتها الشاسعة كما أن مناخها معتدل، والتنازل عن جزء من أرضها سيكون مفيدًا للأرجنتين نفسها حيث سنقدم للأرجنتين القروض والمساعدات كشق الطرق وغيرها وكما سنفعل في المنطقة التي ستخصص لليهود فيها.

هذا وصحيح أن هرتزل قال عن فلسطين إنها الوطن التاريخي لليهود الذي لا ينسى، وحبذا لو أن سلطان تركيا يمنحنا فلسطين في مقابل أن نقدم لتركيا المال، فإنه يتضح أن أبو الصهيونية هرتزل ومساعديه لم تكن فلسطين هي الخيار الأوحد ولا الأول بالنسبة لهم، وكانت في نظرهم مثل أي منطقة أخرى يستطيعون الحصول عليها وحسب، ومعنى هذا من ناحية أخرى، أن دولة إسرائيل قد نشأت على أساس مبادئ هرتزل الصهيونية العلمانية، وليس لها علاقة بشعب الله المختار وأرض الميعاد أو كما يدَّعي بعض الأصوليين اليهود، والدليل على ذلك أن نظام الحكم في إسرائيل هو ديمقراطي ليبرالي غربي، وأن الصهيونية التي أسست وتدير الدولة الإسرائيلية ما زالت تحكم بنفس الأسلوب وإن استعملت بعض رجال الدين اليهود لخدمة سياساتها الداخلية والخارجية، والمتتبع لعلاقة الأحزاب الدينية والحاخامات مع الأحزاب السياسية الإسرائيلية الأخرى، يلمس بسهولة بأن القادة الدينيين في إسرائيل دائمًا يتبعون القيادات السياسية الصهيونية وليس العكس بل إن الأحزاب الدينية تعتاش على المساعدات والرشاوى السياسية التي يقدمها أحيانًا لهم الحزب الحاكم في إسرائيل.

في سنة ١٨٨٩م تزوج هرتزل من "جولي نتشاور" وكانت من أسرة ثرية أيضًا ولم يكن زواجه موفقًا، لعل مشاكل هرتزل الجنسية لعبت دورًا في ذلك، إذ يبدو أنه أصيب بمرض سري (شأنه شأن نيتشه معاصره) وتنقَّل في عدة مصحات للاستشفاء من هذا المرض، كما أنه كان متعلقًا بأمه، فقد استطاعت أمه أن تغذي أحلامه وتشحنه حتى علت همته وصار يظن بأنه صاحب مهمة نبيلة، لهذا اندفع

يعمل بلا كلل في سبيل غاياته مستعملاً عقله وجهده ومثابرته، وهنا قد يكون من المفيد التوقف قليلاً للتحدث عن هوية هرتزل التي كانت تقف بين عدة انتماءات دينية إثنية متنوعة (ألمانية - مجرية - يهودية - بل مسيحية) دون أن ينتمي لأيٍّ منها أو يُستوعَب فيها، فإذا نظرنا لانتمائه اليهودي، فإننا نجد أنه يرفض الدين اليهودي والتقاليد الدينية اليهودية، والواقع أن زوجته كان مشكوكًا في يهوديتها، وقد رفض حاخام فيينا إتمام مراسم الزواج، كما أن هرتزل لم يختن أولاده ولم يكن الطعام الذي يُقدَّم في بيته "كوشير"، أي مباحًا شرعًا، أما تَصوُّره للإله، فلم يكن يستند إلى العقيدة اليهودية بقدر استناده إلى نزعته الحلولية التي توحِّد الإله والطبيعة، فهي حلولية وحدة الوجود أو حلولية بدون إله.

كانت أسرة هرتزل مجرية النسب، إلا أنها ضمن مجموعة من اليهود، قاومت عملية المجرية (أي صبغها بالصبغة المجرية) واحتفظت بولائها لألمانيا (مثل كثير من يهود المجر: "ماكس نوردو" و"جورج لوكاش" وغيرهما)، ولذا نزحت الأسرة إلى فيينا عام ١٨٧٨ م، وكان عدد اليهود في فيينا آنذاك (١٨٨١) لا يزيد على عشرة آلاف يهودي، ولكن تَعثُّر التحديث في شرق أوروبا أدَّى إلى دَفْع جحافل اليهود إلى وسط وغرب أوروبا بحيث بلغ عددهم عام ١٨٩٩ م ما يزيد على ١٠٠ ألف نسمة، أي أنهم زادوا عشرة أضعاف خلال أقل من عشرة أعوام.

إن من الأهمية بمكان أن نعلم، بأن هرتزل لم تكن لديه خبرة نقابية في البداية، ولم يكن واسع الثراء حتى يصبح ذي شأن ونفوذ، ولكنه استطاع أن يجالس الساسة والأباطرة والملوك، ويبدو أنه قد فهم معنى تأثير الرأي العام العالمي، وعرف فن الممكن، وفهم كيف يوجه رسالته الإعلامية إلى العامة والخاصة، لكن البعض ومنهم الدكتور "عبد الوهاب المسيري" يرون أن ما عند هرتزل من ملكات ومقدرة أو كفاءة لا تكفي لتفسير قدرته على تخطي الحاخامات والأثرياء وجمعيات أحباء صهيون وأن يجعل نفسه متحدثا باسم يهود العالم، لهذا لا نجد الآن إلا أن نعطي تفسيرًا لتساؤل الدكتور المسيري، فنقول إن ما قام به هرتزل لو أخذناه بمقاييس زمن القرن الواحد والعشرين فربما يُعتبر مقنعًا إذا ما تذكرنا

أن ليس كل أبناء الجلدة الواحدة على بينة واحدة بقضايا أمتهم، وأن أهل السياسة ليسوا كأهل الدين مثلاً، ناهيك أن هرتزل نشأ في بيئة ساعدته كثيرًا أن يكون موقعه كما تمنى وتمنت له والدته، فهو من أسرة غنية وقد أصاب قسطًا عاليًا من التعليم ودرس القانون وربما هذا ما جعل عنده رؤيا، لكن المهم أيضًا بأن علينا ألا ننسى بأن هرتزل عاش في أكثر من وطن واحد وعمل في الصحافة، وهذا قد أتاح له الكثير أن يعرف عن العالم خصوصًا وأنه تزعَّم تنفيذ فكرة بحجم خلق دولة كانت تكبر مع الأيام وكان يزداد هو معرفة وخبرة وقد خدمته كثيرًا تنقلاته كصحفي بين الدول فقد قابل القادة وقابل الناشطين من اليهود بينما هو يقوم بعمله كصحفي، وهكذا ازداد به إعجاب الحالمين مثله من يهود أوروبا الأغنياء رغم أنه لم يكن يعرف سوى القليل من اللغة العبرية، كان هرتزل يجيد الألمانية والمجرية والإنجليزية والفرنسية، لكنه لم يكن ليجيد اللغات الثلاث الأخرى غير المجرية لولا أن أسرته كانت غنية، ونزوحه مع أسرته إلى سويسرا ودخوله جامعة فيينا وعمله كمراسل لصحيفة فرنسية.

كان هرتزل يتصرف أو بالأحرى كان يتظاهر كالاستقراطيين، وكان يخفي هويته اليهودية بقدر الإمكان، لذا قبله غير اليهود من المتنفذين في الدول الغربية، وقبله اليهود لكي يتحدث باسمهم، فصار وسيطًا لهؤلاء عند أولئك وبالعكس ونجح نجاحًا باهرًا في هذا، كان هرتزل يعرف الكثير من زعماء الدول الغربية وكان يلم إلمامًا شديدًا بما يحدث في العالم من أحداث، كانت له علاقة حين اللزوم بزعماء أوروبيين مثل بنيامين دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا، وسيسيل رودوس وهنرى ستانلي، وكان يعرف عن موازين القوى وعن "تركيا" رجل أوروبا المريض، وكان يفهم التنافس الاستعماري الغربي على مناطق النفوذ، وكان يحاول أن يوظفها لصالح تحقيق هدفه، وكمثال على ذلك ما كتبه هرتزل في مذكراته عن الزعيم المصري "مصطفى كامل"، قال ما معناه إن نجاح مثل هذا الشاب في مصر قد يؤدي إلى إخراج الإنجليز من مصر وقد تفقد قناة السويس أهميتها بالنسبة لتجارة بريطانيا مع الهند، وحينها قد يصبح العبور من قناة

السويس غير مأمونًا وعندها قد تصبح أهمية حيفا إذا ما أقمنا وطنًا قوميًا في فلسطين أهم من قناة السويس بالنسبة للتجارة البريطانية مع الهند، وهرتزل يعني بهذا أنه يتوجب لو شاءت المصالح الصهيونية أن تصنع علاقة مع الحركة الوطنية المصرية ويبدوا الصهاينة أصدقاء للمصريين وهو يقصد إخراج الإنجليز لا من أجل مصطفى كامل وأمثاله أو من أجل مصر، ولكن من أجل جعل البريطانيين يشعرون أن مصالحهم يجب أن تكون مع الحركة الصهيونية لتأمين خط تجارة بريطانيا مع مستعمراتها مع شرق آسيا وخصوصًا مع الهند.

هذا، واستطاع هرتزل أن يقنع القوى الأوروبية الرئيسية في ذلك الوقت، بأن من مصلحتهم التخلص من اليهود المنبوذين في أوروبا بطريقة يتحولون فيها من أعداء إلى أصدقاء للغرب، وذلك بأن يفتحوا لهم باب الهجرة إلى الوطن الموعود فلسطين، كما أن هرتزل استطاع أن يقنع الغرب بأن الدولة اليهودية إذا ما أسست ستظل تحت الحماية الأوروبية وسيكون ارتباطها مع الغرب عضوي وستظل القوى اليهودية العالمية في خدمة الدول الغربية وتبقى الدولة الصهيونية صديقة دائمة للغرب، هذا وذهب هرتزل أبعد من ذلك حينما راح يؤكد للقوى الغربية بأن اليهود والعرب في الشرق الأوسط سيكونون منسجمين سويًا، وستكون المنطقة بهؤلاء وهؤلاء أكثر صداقة مع الغرب، وصاحب الفترة التي لمع فيها نجم هرتزل أن حركة القومية العربية كانت في صعود وانتشار، وكان هدفها الأول التخلص من السيطرة العثمانية.

وهكذا أصبح هرتزل يفكر في السياسة وصار مهتمًا بالمشكل اليهودي وفي ضرورة إيجاد حل غير الاندماج والانصهار في مجتمعات أوروبا الشرقية والغربية، فالتيار المعادي للسامية ورغبة اليهود في إثبات وجودهم كشعب كما يرى هرتزل يدعوان إلى البحث عن بديل، وكانت الإجابة في الكتيب الذي انتهى من تأليفه يوم ١٧ مايو سنة ١٩٩٥م والذي نشر سنة ١٨٩٦م تحت عنوان "دولة اليهود" التي تحدثنا عنه قبل قليل.

قال هرتزل في كتابه دولة اليهود، إن جوهر المشكلة اليهودية ليست مشكلة فردية بل وطنية، وأعلن أن اليهود لن يحصلوا على قبول في العالم إلا إذا توقفت مواطنتهم الشاذة التي يمارسونها في المجتمعات التي يعيشون فيها، إن اليهود هم شعب واحد، وقال إن محنتهم يمكن أن تتحول إلى قوة إيجابية من خلال إنشاء دولة يهودية بموافقة القوى العظمى، وأضاف أنه يرى أن المسألة اليهودية مسألة دولية سياسية يمكن التعامل معها في مجال السياسة الدولية، اقترح هرتزل في كتابه برنامجًا عمليًا لجمع الأموال من اليهود في جميع أنحاء العالم عن طريق شركة تكون مملوكة لحملة الأسهم، وفي نهاية المطاف أصبحت فكرته حين تطبيقها هي المنظمة الصهيونية، وقال إنه لا يرى مستقبلاً للدولة إلا إذا كانت النموذج الاجتماعي للدول، ذلك استنادًا إلى أفكاره على طريقة أسلوب النموذج الأوروبي في ذلك الزمن، وقال أيضًا بإن على هذه الدولة أن تكون على الحياد بين الأمم وتسعى للسلام، وذات طابع علماني، وراح يتصور مجتمعًا جديدًا يقوم على أساس تعاوني واستخدام العلم والتكنولوجيا في تطوير الأراضي.

لقد أعرب هرتزل عن أفكار تفصيلية من ناحية كيف يمكن تقويم مستقبل الهيكل السياسي للدولة، والهجرة وجمع الأموال، والعلاقات الدبلوماسية والاجتماعية والقوانين والعلاقات بين الدين والدولة، وهذا الكتاب كان له تأثير كبير على اليهود بعد ذلك، وأصبح رمزًا للرؤية الصهيونية في أرض إسرائيل حين التطبيق العملي في بناء الدولة، لكن أفكار هرتزل لم تلق حماسة لدى الجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية، إلا أنه ناشد الأثرياء اليهود في أوروبا الغربية مثل البارون هيرش والبارون روتشيلد للانضمام إلى الحركة الصهيونية.

وإن لم يجد الكتيب صدى واسعًا في البداية إلا أنه وضع فعلاً حجر الأساس لظهور الصهيونية السياسية وتأسيس الحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين ٢٩ و٣١ أغسطس ١٨٩٧م وتم انتخاب "تيدور هرتزل" رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية، شهد المؤتمر أكثر من مائتي مندوب يمثلون سائر الهيئات اليهودية العالمية، وأوصى بتشجيع الاستعمار

اليهودي لفلسطين بطريقة منظمة، وبتنظيم الحركة اليهودية واتحاد الهيئات المتفرقة في شتى أنحاء العالم، والعمل على إيقاظ الوعي اليهودي، والقيام بمساع لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية.

وفي الحقيقة أن سطحية هرتزل الفكرية ساهمت إلى حدٍّ كبير أن يظل دائمًا على سطح الأشياء، فلم يدرك عمق التناقضات بين الصهيونية الغربية وصهيونية شرق أوروبا، ولم يكن يعرف عن اليهودية كثيرًا، وهو ما جعله قادرًا على أن يصل للصيغة المراوغة التي سترضي الجميع دون أن يضطر أحد للتنازل عن شيء، وكما بيَّنا من قبل، لم يكن هرتزل يعرف شيئًا عن عالم اليهود ولكنه كان يعرف بعض الشيء عن شخصيات الاستعمار الغربي مثل بنجامين دزرائيلي وسيسل روديس وهنري ستانلي، وعن موازين القوى وعن رجل أوروبا المريض وعن التشكيل الاستعماري الغربي.

ورغم كل هذا ورغم إعجابه الشديد بمؤسسات الحضارة الغربية، ابتداءً من العقلية الألمانية وانتهاءً بالمشروع الاستعماري والتكنولوجيا الغربية، إلا أنه اكتشف أن هذه الحضارة قد أوصدت أبوابها دونه أو على الأقل دون الاندماج التام الذي كان يطمح إليه، فتعرَّض لتمييز عنصري ولسخرية لأنه يهودي، فتذكرة الدخول للحضارة الغربية والاندماج الكامل فيها كان لا يزال اعتناق المسيحية، ولعل انتماءه إلى جماعة شبابية للمبارزة (رياضة المصارعة)، وهي جماعة ذات مُثُل قومية ألمانية عضوية، دليل على حرصه على الانتماء الألماني، ولكن الجمعية اتخذت قرارًا عام ١٨٨١م بعدم ضم أعضاء يهود جدد فقرر الاستقالة احتجاجًا على القرار، وهو بهذا المعنى مثال جيد على "اليهودي غير اليهودي".

وقد ظهر هرتزل في مرحلة كانت صهيونية غير اليهود وصهيونية شرق أوروبا فيها قد دخلت طريقًا مسدودًا، فالفريق الأول كان ينظر لليهود من الخارج وكان الثاني لا ينظر إلى الخارج أبدًا، أما هو فيهودي غربي، أو إن أردنا الدقة لا هو

من شرقها ولا هو من غربها وإنما من وسطها، يقف بين شرقها المتعثر وغربها المندمج، ورغم أنه يهودي كُتب عليه المصير اليهودي، إلا أنه كان كصحفي نمساوي يتحرك بكفاءة في الأوساط الغربية كما كان يتحدث لغتها، وقد قال هو نفسه إنه "تعلَّم في باريس كيف يُدار العالم"، وكان قد ذهب إلى باريس وعمره ٣١ عامًا وتركها وعمره ٣٥ عامًا.

وقد كانت جماهير شرق أوروبا تنظر إليه لا باعتباره من وسط أوروبا وإنما باعتباره غربيًّا، واعتُبرت عودته لها إحدى علامات أخر الأيام، وقد عبَّر وايزمان عن هذا الإحساس خير تعبير، بأسلوبه حين قال:

"أتى هرتزل من عالم غريب لم نعرفه، فركعنا أمام النسر الذي جاء من تلك البلاد [ولنلاحظ الصورة الوثنية هنا، فالنسر علامة القوة ورمز عالم الأغيار بكل تأكيد]، ولو أن هرتزل قد تتلمذ في مدرسة دينية لما تبعه أحد من اليهود [يعني يهود شرق أوروبا] لقد سحر اليهود لأنه ظهر في قلب الثقافة الأوربية".

وما بين ربيع عام ١٨٩٥م وشتائه، اختمرت فكرة الدولة اليهودية في عقل هرتزل، ثم قرَّر أن يسجل أفكاره في كتيب ففعل ذلك في خمسة أيام ونشر موجزًا في صحيفة "جويش كرونيكل" ثم نشرها في ١٤ فبراير ١٨٩٦ م بعنوان "دولة اليهود"، وقد ألَّف هرتزل الكتيب بالألمانية ونشر منه بين عامي ١٨٩٦ و١٩٠٤م خمس طبعات بالألمانية وثلاثًا بالروسية وطبعتين بكلٍّ من العبرية واليديشية والفرنسية والرومانية والبلغارية، وقد أصر هرتزل على أن يضع لقبه العلمي (دكتوراه في القانون)، والكراسة - دولة اليهود - مكونة من ٣٠ ألف كلمة (وتقع في ٦٥ صفحة في طبعتها الأصلية) وأسلوبها واضح بسيط لا يتسم بأي عمق أو تفلسُف، وقد وصف هرتزل كتابه بأنه ليس حلاً وحسب، وإنما هو "الحل الوحيد الممكن".

هذا، ويقول عبد الوهاب المسيري في بحثه عن نسل هرتزل: "وقد اختفى نسل هرتزل نهائيًا، فكبرى بناته بولين (١٨٩٠ - ١٩٣٠م) كانت مختلة عقليًا وطلّقت من زوجها وأصبحت صائدة للرجال ومدمنة للمخدرات، أما أخوها هانز (١٨٩١

- ١٩٣٠م) الذي لم يُختن طيلة حياته، مخالفة للتعاليم اليهودية، فقد أصيب بخلل نفسي واكتئاب شديد ثم تَحولَّ إلى المسيحية وانتحر يوم وفاة أخته، أما الابنة الصغرى، فقد ترددت على كثير من المصحات حتى ماتت عام ١٩٣٦م، وقد نشأ ابنها (حفيد هرتزل) الوحيد - في انجلترا حيث غيَّر اسمه من نيومان (اسم ذو نكهة يهودية) إلى نورمان (اسم ذو نكهة أنجلو ساكسونية، وكان يعمل ضابطًا في الجيش الانجليزي، وبعد أن ترك الخدمة عُيِّن مستشارًا اقتصاديًا للبعثة البريطانية في واشنطن حيث انتحر بأن ألقى بنفسه من على كوبري في النهر".

لم يكن هرتزل صاحب فكر بل صاحب أفكار متباعدة لا ينسجم معظمها مع التسلسل المنطقي والوضوح والتماسك، وطريقته في طرح أفكاره ليس فيها ارتباط كبير بين المقدمات والنتائج وإنما تتسم بالترهل والهلامية، وهي مليئة بالثغرات لعل هرتزل تركها عمدًا كي يملأها كل من يقرأ نصه بالطريقة التي تروق له، من أفكار هرتزل أنه كان يرى أحيانًا أن اليهود عرْق مستقل، ولذا فقد تحدَّث عن أنوفهم المعقوفة وعن الريبة في عيونهم، وكثيرًا ما تحدَّث عنهم من خلال الأنماط العرقيَّة التقليدية الشائعة في أدبيات اليهود، ويبدو أن ادعاء الأرستقراطية كان من قبيل محاولة اللجوء إلى عالم الأغيار الرحب هربًا مما سماه "المادية اليهودية المفرطة"، فهرتزل (الصهيوني اليهودي غير اليهودي) لم يكن له اعتراض على الاندماج والذوبان والانصهار والاختفاء، فهو يقرر في كتابه "دولة اليهود"، بشيء من الاستحسان، أن اليهود لو تُركُوا وشأنهم لاختفوا ولكنهم لا يُتركون وشأنهم، لعل أهمية هرتزل في تاريخ الصهيونية هي أنه حوَّل الصهيونية من مجرد فكرة إلى حركة ومنظمة، نص الخطاب الذي افتتح به تيدور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول يوم ٢٩ أغسطس عام ١٨٩٧ م (انظر الوثائق في نهاية الكتاب).

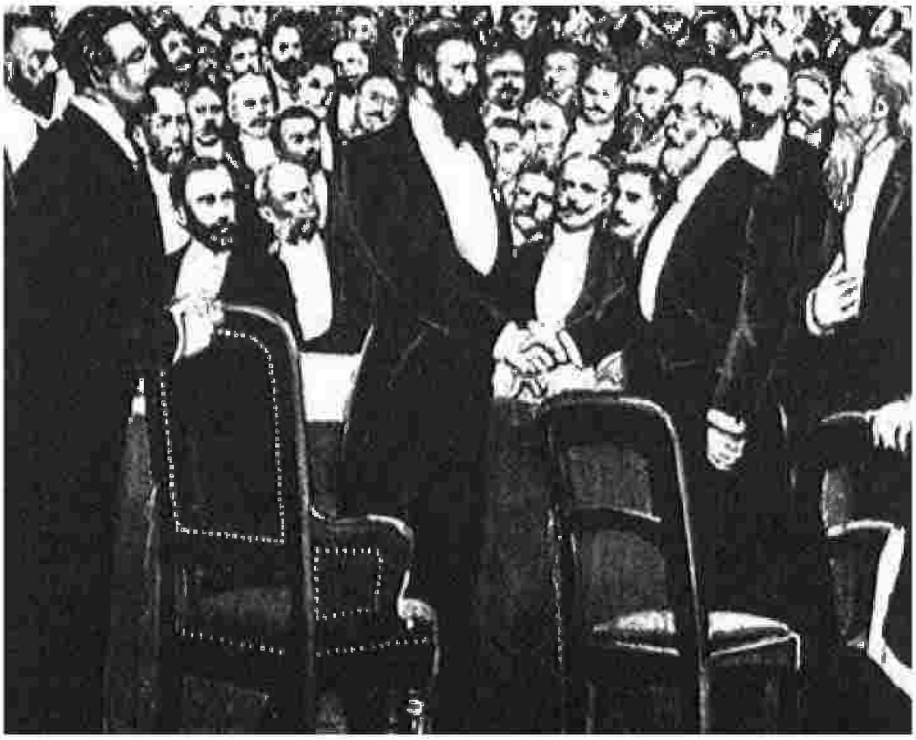

المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧م

بعد ذلك بدأ هرتزل عدة محادثات مع شخصيات عديدة من دول مختلفة، مثل القيصر الألماني "فلهلم الثاني" الذي التقى به سنة ١٨٩٨م مرتين في ألمانيا وفي القدس ثم بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠١م، بحثًا عن مؤيدين للمشروع الصهيوني، وعندما باءت جهوده بالفشل، استدار ناحية بريطانيا العظمى، والتقى مع "جوزيف تشامبرلين" وزير المستعمرات البريطاني وغيره، العرض الوحيد الملموس الذي تلقاه من البريطانيين في ذاك الوقت كان اقتراحهم بإعطاء اليهود حكمًا ذاتيًا في أوغندا في شرق أفريقيا، وحينما وجد أنه لم يجد بغيته ظل ساعيًا لكي يظل المجال مفتوحًا لمواصلة العمل على تأسيس الدولة المزعومة، لم يعش تيدور هرتزل طويلاً فقد وافته المنية في سنة ١٩٠٤م في مدينة "أولاخ" عن عمر يناهز ٤٤ عامًا ودُفِن فيها، بعد قيام دولة إسرائيل نُقِل رفاته إلى فلسطين المحتلة في الوطن الذي تخيله... ودفن في مدينة القدس.

الماسونية Freemasonry:

الصهيونية كالماسونية (الشبكة الإسلامية) ليست وليدة هذا العصر فقد مرت بمراحل كثيرة منذ القرون الأولى قبل ظهور المسيحية وبعدها وقبل ظهور الإسلام وبعده، في مراحلها الأولى كانت مهمتها تحريض اليهود على الانتفاض والعودة إلى أرض فلسطين وبناء هيكل سليمان، وتأسيس مملكة إسرائيل الكبرى، وحياكة المؤامرات والمكائد ضد الأمم والشعوب الأخرى.

يقول الباحث "فتحي بشير البلعاوي" عن معنى الماسونية، هم البناءون، لكن المفسرون لم يتفقوا على المعنى وبقي المعنى الشائع هو البناءون الأحرار، ويعني أن البنَّاء الحر من حقه أن يبني كما يريد ما دام قد تلقى التدريب الكافي أو أن ينتقل إلى أي مقاطعة أو مدينة أخرى ويمارس البناء فيها.

الماسونية منظمة يهودية غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خدَّاعة مثل الحرية - الإخاء - المساواة – الإنسانية، وجلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، ويقيمون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيدًا لتأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية.

توجد ثلاث درجات للماسونيات المختلفة، التلميذ، زميل المهنة، الأستاذ، وأضيفت درجة رابعة هي "القوس المقدس الأعظم"، وتصل الدرجات أحيانًا إلى الآلاف، من رموز الماسونية، المثلث والفرجار والمسطرة والمقص والرافعة والنجمة الخماسية، والأرقام ٣ و٥ و٧ وهي رموز وطقوس تساعد على اكتشاف النور، والوحدة الأساسية في التنظيمات الماسونية هي المحفل، ويحق لكل سبعة ماسونيين أن يشكلوا محفلاً، والمحفل يمكن أن يضم خمسين عضوًا، وتعقد المحافل اجتماعًا دوريًا كل خمسة عشر يومًا، يحضره المتدربون والعرفاء

والمعلمون، أما الرتب العالية فتجتمع على حدة في ورشات التجويد، كما أن للمشاركين في الاجتماعات زيهم الخاص.

تشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى، في فرنسا على سبيل المثال، خمسة محافل أساسية كبرى، هي: محفل الشرق الكبير، ومحفل فرنسا الكبير، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية، ومحفل فرنسا الكبير للنساء، وللمحافل الكبرى جمعيات عمومية يتخللها تقييم العمل الذي تم إنجازه ورسم خطط العمل للمستقبل.

أما تاريخ ظهور الماسونية فقد اختلف عليه لتكتمها الشديد، والراجح أنها ظهرت سنة ٤٣م، ومرت الماسونية بمرحلتين لتأسيسها، هما مرحلة القوة الخفية وهدفها التنكيل بالنصارى وبعد عدة قرون سميت بالماسونية، ومرحلة أخرى تبدأ سنة ١٧٧٠م عن طريق "آدم وايزهاويت" المسيحي الألماني (توفى ١٨٣٠م) الذي ألحد واستقطبته الماسونية ووضع الخطة الحديثة للماسونية بهدف السيطرة على العالم وانتهى المشروع سنة ١٧٧٦م، ووضع أول محفل في هذه الفترة المحفل النوراني نسبة إلى الشيطان الذي يقدسونه.

ضمَّت الماسونية شخصيات هامة مثل "ميرابو" و"مازيني" الذي أعاد ضبط الأمور بعد موت وايزهاويت، والجنرال الأمريكي (ألبرت مايك) الذي سُرِّح من الجيش فصب حقده على الشعوب من خلال الماسونية، كودير لوس اليهودي صاحب كتاب العلاقات الخطرة، لاف أريدج وهو الذي أعلن في مؤتمر الماسونية سنة ١٨٦٥م في مدينة أليتش في جموع من الطلبة الألمان والأسبان والروس والإنجليز والفرنسيين قائلاً: "يجب أن يتغلب الإنسان على الإله وأن يُعلن الحرب عليه وأن يخرق السماوات ويمزقها كالأوراق، جان جاك روسو، فولتير (في فرنسا)، جرجي زيدان (في مصر)، كارل ماركس وأنجلز (في روسيا) والأخيران كانا من ماسونيي الدرجة "الحادية والثلاثون" ومن منتسبي المحفل الإنجليزي ومن الذين أداروا الماسونية السرية وبتدبيرهما صدر البيان الشيوعي المشهور.

نشطت الماسونية داخل الدولة العثمانية مثلما نشطت في دول أخرى، ولقد اختلف في نشأتها داخل الدولة العثمانية، فيرى بعض الباحثين أن الماسونية الرمزية ظهرت في الدولة العثمانية سنة ١٧٣٨م في منطقة (كورفو)، تحت رعاية المحفل الأعظم الإنجليزي، في حين يرى البعض الآخر أن الماسونية كانت لها محافلها سنة ١٧٤٨م، حيث أمر الباب العالي أن تُحاصِر الشرطة في اسطانبول محفل ماسوني من أجل طرد أصحابه وتخريبه، ولقد ظهر محفل ماسوني آخر سنة ١٨٣٧م عُرف باسم محفل فيثاغورث، ثم تأسست محافل أخرى في أمان من تركيا.

كما أن أدلة كثيرة تُشير إلى أن الحركة الماسونية انبعثت في مصر سنة 1798م علي يد رجال الحملة الفرنسية، إلا أن المحفل المصري انحل، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية، شهد عصر "محمد علي" على تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة ١٨٣٠م، على الطريقة الاسكتلندية وغيرها، ولم تكن هذه المحافل منظمة في عملها فكانت تُفتح وسرعان ما كانت تُغلق بسبب مقاومة الدين الإسلامي لها.

يلاحظ أن نشأة المحافل الماسونية الحقيقية في الدولة العثمانية كان في الفترة من ١٨٦٠ – ١٨٦٩م وهي الفترة التي كان فيها السلطان (عبد العزيز) سلطانًا للدولة، وعندما تولى السلطان "عبد الحميد" مقاليد الأمور اتخذ موقفًا حاسمًا من الماسونية حيث أبدى معارضة شديدة لها، لأنه كان يرى فيها جمعية سرية سياسية وخطيرة في آن واحد، وقد هدفت الماسونية إلى تدبير انقلاب ضد السلطان ومن ثم خلعه، لكن المؤامرة اكتشفت، فقامت الأجهزة الأمنية بمداهمة مقر اللجنة فقبض على من قبض عليه وفرَّ من فرَّ، هذا إلى جانب ما قامت به الماسونية من محاولة اغتيال للسلطان عبد الحميد أكثر من مرة، وذلك حينما وضعت قنبلة كبيرة أثناء تأديته لصلاة الجمعة إلا أنه لم يصب، وأما عند التحدث عن العلاقة بين الماسونية وجمعية الاتحاد والترقي التركية فهي علاقة وطيدة

وعميقة، فمنذ البداية انضم لها الأحرار العثمانيون الذين سموا أنفسهم "بتركيا الفتاة" أو "جمعية الاتحاد والترقي".

وفي إطار حملتهم للقضاء على الديانة النصرانية، كان قد أنشأ اليهود في سنة ٤٣م جمعية سرية أطلقوا عليها اسم "القوة الخفية" واستعانوا بشخصية يهودية تُعرف باسم "احيرام أبيود" أحد مستشاري الملك هيرودس الثاني عدو النصرانية الأكبر على تحقيق هذه الغاية، وأسندت رئاسة الجمعية إلى الملك المذكور، وهكذا تم عقد أول اجتماع سري عام ٤٣ م حضره الملك المذكور ومستشاراه اليهوديان "احيرام أبيود وموآب لافي" وستة من الأنصار المختارين، وكان الغرض الرئيسي من إنشاء هذه الجمعية القضاء على النصرانية.

ثم عقدوا الاجتماع الثاني واتخذوا بعض القرارات السرية وتعاهدوا على كتمانها وأفسحوا لمن يثقون بهم المجال للانضمام إلى هذه الجمعية على أن تعصب عيني كل من يود الانتساب للجمعية، واتفقوا على اتخاذ بعض الأدوات الهندسية كالبيكار والميزان رمزًا لمنظمتهم السرية، وبعد هلاك الملك هيرودس انتقلت رئاسة هذه الجمعية السرية إلى "احيرام" مستشاره ثم أعقبه ابن أخيه "طوبان لقيان"، واستمرت جمعية القوة الخفية تعمل في السر، ولا يدري أحد عنها شيئًا حتى أميط اللثام عن هذه المنظمة عام ١٧١٧م، وذلك لدى ظهور ثلاثة من أقطاب اليهود "جوزيف لافي وابنه إبراهيم وإبراهيم أبيود"، وكانوا يحتفظون بنسخة من مبادئ هذه الجمعية وقراراتها وطقوسها وأخذوا يجوبون الأقطار للاتصال بالبقية الباقية من أتباع هذه المنظمة السرية، وكانوا يهدفون إلى استعادة مجد إسرائيل، واسترداد هيكل سليمان في بيت المقدس، ثم قصدوا لندن التي كانت تضم أعظم جماعة من اليهود المنتمين إلى تلك القوة الخفية.

وفي ٢٤ يونيو من العام المذكور، عقد هؤلاء الثلاثة الذين يعتبرون ورثة السر أول اجتماع في العاصمة البريطانية، وضموا إليهم اثنين من غير اليهود البسطاء للتمويه والتضليل وقرروا تجديد جمعية "القوة الخفية" ووضعوا لها بعض المبادئ البراقة "حرية، مساواة، اخاء، تعاون" واستبدلوا الرموز القديمة باصطلاحات

جديدة، كما قرروا تبديل اسم "هيكل" الذي كانوا يستعملونه قديمًا باسم "محفل" وتبديل اسم القوة الخفية باسم "البنائين الأحرار" (ماسون تعني بناء)، ولأول مرة في التاريخ ظهر لعالم الوجود ما يسمونه بالبنائين الأحرار، وأخذت تنتشر الجمعيات التي تحمل هذا الاسم، وزعم أقطاب اليهود الذين يقفون وراء هذه الجمعيات أن أهدافها نشر المبادئ الإصلاحية والاجتماعية وبناء مجتمع إنساني جديد، وقد استطاعوا أن يتخذوا من أحد أنصارهم "ديزا كولييه" مطية لتحقيق أغراضهم وأطلقوا عليه وعلى من يسيرون على غراره من غير اليهود اسم "العميان" كما أطلقوا على اسم محفل لندن الماسوني المركزي اسم "محفل انجلترا الأعظم"، على أن يكون في مقدمة مهامه دعم اليهود ومحاربة الأديان وبث روح الإلحاد والإباحية.

وللحركة الماسونية تاريخ أسود، وتردد اسمها عند نشأة كثير من الحركات السرية والعلنية وفي مؤامرات عديدة، وعُرفت بطابع السرية والتكتم وبالطقوس الغريبة التي أخذت الكثير من رموزها من التراث اليهودي وكُتبت حولها الآلاف من الكتب في الغرب وفي الشرق، ومن أهم الحركات والثورات التي كانت الماسونية وراءها الثورة الفرنسية، وحركة الاتحاد والترقي التي قامت بحركة انقلابية ضد السلطان عبد الحميد الثاني في تركيا ووصلت إلى الحكم ثم ما لبثت أن ورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى تمزقها وسقوطها، وقد ظل طابع السرية يلف هذه الحركة في اجتماعاتها ومنتدياتها وتحركاتها حتى طرأ تطور جديد، إذ تجرأت بفتح أبوابها وإعلان نشاطها متحدية كل المشاعر المتأججة ضدها، وكانت تركيا المحطة الأولى في المنطقة لإعلان هذا النشاط، ثم جاءت الأردن بعدها، ولا ندري أين ستكون المحطة الثالثة؟

الماسونية كما هو ثابت، نتاج الفكر اليهودي، وتركيا ترتبط مع إسرائيل بحلف استراتيجي، فهل هناك علاقة تجمع الآن بين أطراف هذا الثالوث؟ فما قصة الماسونية في تركيا؟ وماذا فعلت فيها.. ولنبدأ من البداية:

تأسس أول محفل ماسوني في الدولة العثمانية عام ١٨٦١م تحت اسم "الشورى العثمانية العالية" ولكنه لم يستمر طويلاً، فالظاهر أنه قوبل برد فعل غاضب مما أدى إلى إغلاقه بعد فترة قصيرة من تأسيسه (موقع العلوم الخفية)، ومن المعروف أن أول سلطان عثماني ماسوني كان السلطان مراد الخامس الشقيق الأكبر للسلطان عبد الحميد الثاني والذي لم يدم حكمه سوى ثلاثة أشهر تقريبًا عندما أقصي عن العرش لإصابته بالجنون، وقد انتسب إلى الماسونية عندما كان وليًا للعهد وارتبط بالمحفل الاسكتلندي، كما كان صديقًا حميمًا لولي العهد الإنجليزي الأمير إدوارد "ملك انجلترا فيما بعد" الذي كان ماسونيًا مثله، حتى ظنّ بعض المؤرخين أن ولي عهد انجلترا هو الذي أدخله في الماسونية، ولكن هذا غير صحيح لأنه كان ماسونيًا قبل تعرفه إلى الأمير "إدوارد".

كان من النتائج الخطيرة لتواجد المحافل الماسونية الأجنبية داخل حدود الدولة العثمانية، احتضان هذه المحافل حركة "الاتحاد والترقي" وهي في مرحلة المعارضة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأصبحت المحافل الماسونية محل عقد اجتماعات أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بعيدًا عن أعين شرطة الدولة وعيونها لكونها تحت رعاية الدول الأجنبية ولا يمكن تفتيشها، ويعترف أحد المحافل الماسونية التركية الحالية وهو محفل "الماسونيون الأحرار والمقبولون" في صفحة "الإنترنت" التي فتحوها، "من المعلوم وجود علاقات حميمة بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وبين أعضاء المحافل الماسونية في تراقيا الغربية، بدليل أن الذين أجبروا السلطان عبد الحميد الثاني على قبول إعلان المشروطية كان معظمهم من الماسونيين".

يقول المؤرخ الأمريكي الدكتور "أرنست أ. رامزور" في كتابه "تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م" وهو يشرح سرعة انتشار حركة جمعية الاتحاد والترقي في مدينة سلانيك:

"لم يمض وقت طويل على المتآمرين في مدينة سلانيك وهي مركز النشاط حتى اكتشفوا فائدة منظمة أخرى وهي الماسونية، ولما كان يصعب على عبد الحميد

أن يعمل هنا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية فإن المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع - بطريقة سرية طبعًا - وضمت إلى عضويتها عددًا ممن كانوا يرحبون بخلع السلطان عبد الحميد."

ثم يقول، "ويؤكد لنا دارس آخر إنه في حوالي سنة ١٩٠٠ م قرر "المشرق الأعظم" الفرنسي (أي المحفل الماسوني الفرنسي) إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها، ثم إن محللاً آخر يلاحظ، "يمكن القول بكل تأكيد إن الثورة التركية أي حركة جمعية الاتحاد والترقي كلها تقريبًا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية".

ويقول "سيتون واطسون" في كتابه "نشأة القومية في بلاد البلقان"، "إن أعضاء تركيا الفتاة - الذين كان غرب أوروبا على اتصال دائم معهم - كانوا رجالاً منقطعين وبعيدين عن الحياة التركية وطراز تفكيرها لكونهم قضوا ردحًا طويلاً من الزمن في المنفى، وكانوا متأثرين وبشكل سطحي بالحضارة الغربية وبالنظريات غير المتوازنة للثورة الفرنسية، كان كثير منهم أشخاصًا مشبوهين، ولكنهم كانوا دون أي استثناء رجال مؤامرات لا رجال دولة، ومدفوعين بدافع الكراهية والحقد الشخصي لا بدافع الوطنية، والثورة التي أنجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة سلانيك إذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونية "جمعية الاتحاد والترقي" وهي المنظمة السرية التي بدلت نظام حكم عبد الحميد.

وكما كان عهد الاتحاديين هو العهد الذهبي بالنسبة لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين كذلك كان العهد الذهبي في فتح المحافل الماسونية في طول البلاد وعرضها في الدولة العثمانية، يقول فخر البارودي في مذكراته واصفًا وضع دمشق بعد وصول الاتحاد والترقي إلى الحكم، "وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج - أي المحفل - الماسوني الذي كان مغلقًا قبل الدستور" ثم يقول:

"وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه، وجمع الأعضاء شملهم وأسسوا محفلاً جديـدًا أسموه محفل "نور دمشق" وربطوه بالمحفل الاسكتلندي".

ولكي نعرف مكانة المحافل الماسونية لدى أعضاء جمعية الاتحاد والترقي نسوق هنا اعتراف أحد أعضائهم: "كان هناك نوعان من الأعضاء في الجمعية: أحـدهما مرتبط بالمحفل الماسوني وهذا كنا نطلق عليه اسم الأخ مـن الأب والأم، وآخـر غير مرتبط بالمحفل الماسوني، فكنا نطلق عليه اسم الأخ من الأب فقـط"، وفـي كتاب نشره الماسونيون في تركيا تحت عنوان "الماسونية في تركيا وفي العـالم" يتحدث عن دور المحافل الماسونية في إنجاح حركة الاتحاديين: "وقـد انتشـرت الماسونية بشكل خاص في سلانيك وحواليها، ومع أن عبد الحميد حاول أن يحـد ويشل الحركة الماسونية هناك، إلا أنه لم يوفَّق في مسعاه"، "وقـد قامـت هـذه المحافل، لاسيما محفل "ريزورتا" ومحفل "فاريتاس" بـدور كبيـر فـي تأسـيس وتوسيع حركة جمعية الاتحاد والترقي، كما كان للماسونيين دورهم فـي "إعـلان الحرية" سنة ١٩٠٨م.

وكلمة الماسونية.. اشتقاق لغوى من الكلمـة الفرنسـية (Macon) ومعناهـا (البناء) والماسونية تقابلهـا (Maconneries) أي البنـاءون الأحـرار، وفـى الإنجليزية يقال فرى ماسون (Free-mason) (البناءون الأحرار)، وبذلك يتضح أن هذه المنظمة يربطها أصحابها ومؤسسوها بمهنـة البنـاء، وبالفعـل يـزعم مؤرخوها ودعاتها أنها في الأصل تضم الجماعات المشتغلة فـي مهـن البنـاء والعمار، وفى هذا التبرير التخفيفي يحاولون إظهارها وكأنها أشبه بنقابة للعاملين في مهن البناء! ولو كانت الماسونية نقابة محترفي أعمـال بنـاء فمـا الـداعي لسريتها وإخفاء أوراقها..؟!

الماسونية هي حركة خطيرة، ما إن يطرح اسمها حتى يدور القلـق فـي نفـس المستمع، وما أن تذكر حتى ترى الجلساء يبدأون بتعداد مؤامراتهـا ومكائـدها، ويظهرون الحيرة في أمر هذه الحركة التي اعتمدت السرية في إخفـاء حقيقتهـا

وأهدافها، ولعل ذلك لأن اليهود الذين حاربوا الأنبياء والرسل، وظنوا أنهم شعب الله المختار وأن ما سواهم أغيار (غوييم أو جوييم) أي أغبياء ضالين يوجهونهم كيف يشاءون ويصل بهم المستوى للقول (الغوييم هم حيوانات بصورة بشر) أرادوا أن تكون الماسونية من جملة الأقنعة إلى تستتر مخططاتهم وراءها.

يقول حكماء صهيون في البرتوكول الخامس عشر من بروتوكولاتهم: إنه من الطبيعي أن نقود نحن وحدنا الأعمال الماسونية، لأننا وحدنا نعلم أين نحن ذاهبون وما هو هدف كل عمل من أعمالنا، أما الغوييم فإنهم لا يفهمون شيئًا حتى ولا يدركون النتائج القريبة، وفي مشاريعهم فإنهم لا يهتمون إلا بما يُرضي مطامعهم المؤقتة ولا يُدركون أيضًا حتى أن مشاريعهم ذاتها ليست من صنعهم بل هي من وحينا!

هذا قليل من كثير جاء عند حكماء صهيون عن الماسونية، بأنها من الأدوات المهمة التي يسعون عبرها لتحقيق أهدافهم سواء في بناء مملكتهم المزعومة في فلسطين، وإعادة بناء هيكل سليمان، أو في تحقيق نفوذ لهم في أية حكومة أو مؤسسة يستطيعون النفاذ إليها أو في نشر الفساد في الأرض، لأن إشاعة التعلق بالمادة والشهوات والأهواء يكشف الثغرات ونقاط الضعف في كل شخص من النافذين بشكل خاص لكي يتوجهوا إليه بإشباع هذه الأهواء فيصبح رهينة بين أيديهم يستثمرونه كي يريدون!

الماسونية تعتمد المنهج اليهودي في الحط من شأن الخالق سبحانه وتعالى، فكما اليهود في توراتهم (التوراة) المحرفة يقولون في الإتحاد بين الله والإنسان، فيعطون على أساس ذلك لله تعالى أوصافًا بشريه كقولهم مثلا، "بكى حتى تورمت عينيه! ندم على خراب الهيكل! سمع آدم وقع أقدام الرب في الجنة"!

كذلك الماسون يستخدمون للخالق سبحانه وتعالى تعبيرًا غامضًا هو: مهندس الكون الأعظم! وفي هذا التعبير إنكار واضح لخلق الله تعالى المخلوقات من العدم، فالمهندس ليس سوى بان من مواد متوفرة، وقولهم الأعظم يفيد وكأن

العمل تم من قِبَل مجموعه كان هو أعظمها فماسونيتهم كما يدعون فوق الأديان وهى عقيدة العقائد لا تعترف بوطنيه ولا قوميه فهي أممية عالمية تعمل على توحيد العالم وسلام عالمي ولغة عالمية إلى ما هنالك من الشعارات البراقة التي يجد فيها الضعفاء سبيلاً للهروب ومبررًا لتقصيرهم في جهادهم من إعلاء راية الإيمان وحفظ الأمم والأوطان والمقدسات.

اعتمدت الماسونية على السرية كما أسلفنا في إخفاء حقيقتها وأهدافها، وقد أراد اليهود أن تكون تلك الحركة من جملة الأقنعة التي تتستر مخططاتهم وراءها ولم يعرف التاريخ البشري فئة أقوى تنظيمًا من الماسون، ومن دلائل ذلك وقوع الكثيرين من زعماء العالم تحت سيطرتهم حتى صاروا كالدمى في أيديهم خوفًا على مناصبهم، فعلى مستوى الرموز الأوروبية السياسية، انضم إليها كلٌ من ملك بروسيا فريدريك الثاني والثالث وملوك شبه جزيرة اسكندنافيا، وملك النمسا جوزيف الثاني، ونابليون وأفراد أسرته، بالإضافة إلى أعضاء الأسرة المالكة الإنجليزية.

هذا، ومن جهة ثانية استطاعت الماسونية من خلال قدرة اليهود التعبوية التأثير في أعضاء الطبقة الفكرية والعلمية من أمثال فولتير ومونتسكيو وجوته وفختة وهربر وموتسارت كذلك وقفت وراء العديد من الحركات والثورات كالثورة الفرنسية.

وليست الماسونية حركة منظمة لا يمكن محاربتها، وإنما هي حركة مشتتة متعددة النظم محافلها أكثر من أن تعد، وهي متصارعة وكل محفل فيها يتهم غيره بالخروج عن الماسونية والانحراف عن مبادئها، ففي لبنان وحده وهو بلد صغير هناك عشرات المحافل ولكل واحد منها نظامه ورؤساؤه ومفاهيمه والماسونية حركة تشكل أداة بيد الصهيونية والاستعمار ولكنها ليست الوحيدة، فمن تفرعاتها أندية الروتارى والليونز التي يتباهى بعض من ينسبون أنفسهم لمراكز دينية أو ثقافية زورًا بالانتماء لها أو حضور احتفالاتها، ومن مثيلاتها حركات هدامة وأبرزها البهائية والقيدانية.

والماسونية أو النورانيون هم نمط من طرق تنفيذ المخططات التي قام بها دعاة الصهيونية عبر إحدى المنظمات المنبثقة عن الصهيونية، التي كانت تهدف إلى توجيه مسيرة أمة من الأمم لأجل أن تخدم المخطط العالمي الشيطاني في المدى البعيد.. كيف استطاعوا بتخطيط وصبر وأناة أن يغيروا وجه الأمة الفرنسية؟!

كان "آدم وايزهاويت" أستاذًا يسوعيًا للقانون في جامعة "انغولد شتات" بألمانيا، ولكنه ارتد عن المسيحية ليعتنق المذهب النوراني في عام ١٧٧٠م، استأجره اليهودي الألماني "مائير روتشيلد" صاحب أكبر إمبراطورية مالية في عصره لمراجعة وإعادة تنظيم البروتوكولات الصهيونية القديمة على أسس حديثة.. والهدف من هذه البروتوكولات هو التمهيد لكنيس للسيطرة علي ما يتبقى من الجنس البشريّ وكما يفرض المذهب النوراني وأيديولوجيته بعد الكارثة الاجتماعية الشاملة التي يجري الإعداد لها بطرق مختلفة، وبناء على ذلك فقد أنهي وايزهاويت مهمته في الأول من مايو ١٧٧٦م.

دعا المخطط الذي رسمه وايزهاويت إلى تدمير جميع الحكومات والأديان الموجودة في العالم، على أن يتم الوصول إلي هذا الهدف عبر طريق تقسيم الشعوب وتصنيفها - التي سماها الجوييم (الأغيار) - إلى معسكرات متنابذة تتصارع إلي الأبد، والجوييم هو لفظ بمعني القطعان البشرية ويطلقه اليهود علي البشر من الأديان الأخرى، ويقتضي المخطط بأن يتم تسليح هؤلاء البشر بعد تقسيمهم وتصنيفهم، ثم يجري تدبير "حادث" في كل فترة، لكي تشتعل العداءات بينهم، فتضعف الأمم نفسها، فتتحطم الحكومات الوطنية والمؤسسات الدينية، ولأجل الإسراع في تحقيق الهدف لجأ وايزهاويت إلي الزيف والكذب، مدعيًا أن هدفه هو الوصول إلي حكومة عالمية واحدة، استطاع وايزهاويت أن يضم إليه ما يقارب الألفين من الأتباع من اللامعين في ميادين الفنون والآداب والعلوم والاقتصاد والصناعة، وانشأ "محفل الشرق الأكبر" ليكون مركز القيادة السريّ، كان وايزهاويت يهدف في خطته المنقّحة من أتباعه النورانيين اتباع التعليمات الآتية لتنفيذ أهدافهم:

استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة، وأن على النورانيين الذين يعملون كأساتذة في الجامعات والمعاهد العلمية، أن يولوا اهتمامهم إلي الطلاب المتفوقين عقليًا خصوصًا الطلاب المنتمين إلي أسر ثرية ومشهورة، لكي يربوهم على الاتجاه نحو الأممية العالمية، وذلك تمهيدًا لإحلالهم في المراكز الحساسة في دولهم بعد ذلك للعمل إلي التدمير النهائي لجميع الأديان والحكومات، والعمل على السيطرة علي الصحافة وأجهزة الإعلام في بلادهم خصوصًا في الدول المتنفذة ذات القدرة الاستعمارية لكي يجعلها النورانيون أداة في أيديهم أو كمعول للتدمير كلما تطلب الأمر، فقد كان الهدف في النهاية، إيجاد حكومة أممية واحدة تحت شعار، إن الطريق الوحيد لحل مشاكل العالم المختلفة هو ذلك، وهم في الحقيقة لا يعنون سوى السيطرة على العالم.

ولما كانت فرنسا وانكلترا أعظم قوتين في العالم في ذلك الوقت، وكان لهما مستعمرات لا تغيب عنها الشمس، أصدر وايزهاويت أوامره إلي جماعة النورانيين لكي يثيروا الحروب الاستعمارية لأجل إنهاك بريطانيا وإمبراطوريتها، وينظموا ثورة كبرى لأجل إنهاك فرنسا أيضًا، كانت خطة وايزهاويت أن تندلع ثورة وفوضى في فرنسا عام ١٧٨٩م، وقد وضع كاتب ألماني اسمه سفاك نسخة وايزهاويت المنقَّحة عن "المؤامرة القديمة"، علي شكل وثيقة جعل عنوانها "المخطوطات الأصلية الوحيدة".

في عام ١٧٨٤م، أرسل النورانيون نسخة من الوثيقة إلي جماعة النورانيين، الذين أوفدهم وايزهاويت إلي فرنسا لتدبير الثورة فيها، إلا أن القدر شاء أن تحدث صاعقة انقضت علي حامل الرسالة وهو يمر خلال راتسبون في طريقه من فرانكفورت إلي باريس فقتلته وأدي ذلك إلي العثور علي الوثيقة التخريبية من قبل رجال الأمن لدي تفتيشهم الجثة، وبعد أن درست الوثيقة بعناية من قبل الحكومة البافارية، أصدرت الحكومة أوامرها إلي قوات الأمن لاحتلال "محفل الشرق الأكبر" ومداهمة منازل عدد من شركاء وايزهاويت، أغلقت الحكومة محفل

الشرق الأكبر عام ١٧٨٥م، واعتبرت جماعة النورانيين خارجين على القانون، وأصبح نشاط النورانيين سرًا، أصدر وايزهاويت تعاليمه إلي أتباعه بالتسلل إلي صفوف ومحافل جمعية الماسونية الزرقاء، وتكوين جمعية سرية في قلب التنظيمات السرية، وسمح للماسونيين فقط بدخول المذهب النورانيّ، الذين برهنوا علي ميلهم للأممية والإلحاد.

كان أول من نبَّه إلى خطر النورانيين "جون روبنسون"، الذي نشر كتابًا سنة ١٧٩٨م، أسماه "البرهان علي وجود مؤامرة لتدمير كافة الحكومات والأديان"، لكن لا أحد قد التفت إلى تحذير روبسون كما حدث في السابق من تحذيرات صدرت عن الآخرين!

في الولايات المتحدة آنذاك، كان الرئيس الأمريكي – "توماس جيفرسون" الذي أصبح تلميذًا نورانيًا لوايزهاويت، وكان من أشد المدافعين عنه حينما أعلنته حكومة بلاده ألمانيا خارجًا علي القانون، وعن طريق جيفرسون تم تغلغل النورانيين في المحافل الماسونية حديثة التشكيل ببعض المدن الأمريكية، في عام ١٧٨٩م، حذر جون روبنسون الزعماء الماسونيين من تغلغل جماعة النورانيين في محافلهم، ونفس الشيء قال أيضًا "أدلي دافيد باين" رئيس جامعة هارفارد عام ١٧٩٨م.

في عام ١٨٢٩م، عقد النورانيون مؤتمرًا لهم في نيويورك، تكلم فيه نورانيّ انجليزي اسمه "رايت"، وأعلم فيه المجتمعين أن جماعتهم قرّرت ضم جماعات العدميين والإلحاديين وغيرهم من الحركات التخريبية الأخرى في منظمة عالمية واحدة تعرف بالشيوعية، وكان الهدف من هذه القوة التخريبية التمهيد لجماعة النورانيين إثارة الحروب والثورات في المستقبل، وقد عين روزفلت - الجد المباشر لفرانكلين روزفلت - "هوارس غريلي" و"تشارلز دانا" لجمع المال لتمويل المشروع الجديد، وقد مولت هذه الأرصدة كارل ماركس وإنجلز عندما كتبا "رأس المال" و"البيان الشيوعي" في العاصمة الإنجليزية لندن.

كان "كارل ماركس" يكتب "البيان الشيوعي" تحت إشراف جماعة من النوارنيين، وكان البروفيسور "كارل ريتر" من جامعة فرانكفورت يعد النظرية المعادية للشيوعية تحت إشراف جماعة أخري من النورانيين، بحيث يمكن استخدام النظريتين في التفريق بين الأمم والشعوب، فكانت النواة التي انفلقت فيما بعد وأنبتت المذهب النازي، واستطاع النورانيون إشعال حربين عالميتين.

عام ١٨٣٤م جيء بالزعيم الثوري الإيطالي "مازيني" لكي يصبح رئيس برنامج النورانيين لإثارة الاضطرابات في العالم، كما انضم للنورانيين الجنرال الأمريكي "ألبرت مايك" وسرعان ما وقع الجنرال ألبرت مايك تحت سيطرة مازيني، كانت فكرة الجنرال ألبرت مايك بأن تنظم الحركات العالمية الثلاث، الشيوعية والنازية والصهيونية السياسية، وغيرها من الحركات العالمية، لإثارة الحروب العالمية الثلاث والثورات الثلاث.

الحرب العالمية الأولى، للإطاحة بحكم القياصرة في روسيا وجعل تلك المنطقة قلعة للشيوعية، وتم التمهيد لهذه الحرب باستغلال الخلافات التي أوجدها في الأصل النورانيون بين الإمبراطوريتين البريطانية والألمانية، وجاءت الشيوعية بعد ذلك لتدمير الدول والأديان.

الحرب العالمية الثانية، كان الهدف منها تدمير النازية وازدهار الصهيونية السياسية، وإقامة دولة إسرائيل، ودعم الشيوعية لأجل أن تصبح هناك قوتان متضادتان أيديولوجيا، الشيوعية والعالم الرأسمالي، والتمهيد للكارثة الإنسانية النهائية.

الحرب العالمية الثالثة، مفروض أن يقضي مخططها بأن تنشب أولاً بين الصهيونية السياسية وأنظمة الدول الإسلامية وأن تدمر بعضها البعض، وأن تتقاتل الأمم الأخرى حتى يصاب الجميع بالتعب والإرهاق.

كانت النشاطات الثورية لكل هؤلاء تموّل من قبل أصحاب البنوك العالمية في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، وعلى القارئ هنا أن يتذكر أن

أصحاب البنوك العالمية هم اليوم - كما كان صرافو النقود والمرابون في أيام المسيح - عملاء للنورانيين أو أدوات بيدهم، حتى أواخر القرن الثامن عشر كان مركز قيادة النورانيين في مدينة فرانكفورت بألمانيا، حيث تأسست أسرة روتشيلد واستقرت وضمت تحت سلطانها عددًا من كبار الماليين العالميين الذين "باعوا ضمائرهم إلى الشيطان"، ثم نقل مركز القيادة إلي سويسرا، وظلوا هناك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم انتقلوا إلى نيويورك حيث حل آل روكفلر محل آل روتشيلد فيما يختص بعمليات التمويل.

وعودة إلى اجتماع مائير روتشيلد مع جماعة "النورانيين" المعروف تاريخيًا بأنه الاجتماع الذي صيغت فيه لأول مرة ما يعرف بـ "بروتوكولات حكماء صهيون"، فقد تحدث مائير روتشيلد مهندس البروتوكولات للحضور فكان مما قال: "للحصول على أطيب نتائج في الحكم، هي استعمال العنف والإرهاب لا استعمال المناقشات الهادئة. الحرية السياسية ليست إلا فكرة مجردة ولن تكون حقيقة واقعة، فإذا ما آمنت الجماهير بتلك الفكرة المجردة قبلت أن تتنازل عن امتيازاتها. إن سلطة الذهب تمكنت من انتزاع مقاليد الحكم، كما أن الوصول إلى الهدف يبرر استعمال الوسيلة، لقد وجدنا معنى جديدًا للحق هو أن نهجم متذرعين بحق الأقوياء، فنذروا أدراج الرياح كل المؤسسات والعقائد القائمة، أن نتبنى دراسة نفسية للجماهير لكي نتمكن من السيطرة على زمامهم، فالجماهير عمياء عديمة التفكير، ليس هناك في العالم ما يسمى بـ"الحرية" أو "المساواة" أو "الإخاء"، وليست هناك سوى شعارات كنا أول من أطلقها على أفواه الجماهير ليرددها الأغبياء كالببغاوات، استعمال المال لتحريك العملية الانتخابية، ليصل إلى المناصب العامة رجال ضعاف يسهل إخضاعهم، كما أن مائير روتشيلد تحدث عن أهمية الإعلام لتحقيق أهداف النورانيين من ناحية ضرورة الوصول لعقلية الشباب واستمالتهم وإفسادهم بالخداع.

كانت الوثائق التي وقعت عام ١٩٠١م بحوزة البروفيسور "نيلوس الروسي"، والتي نشرها في كتاب تحت عنوان "الخطر اليهودي" عام ١٩٠٥م في روسيا

حيث يبين خطر الصهيونية، وقد ترجم كتاب الخطر اليهودي إلى الإنجليزية، وطبع في عام ١٩٢١م تحت اسم "بروتوكولات حكماء صهيون".

في عام ١٧٨٥م قام أحد الفرسان على ظهر جواده بحمل رسالة النورانيين من فرانكفورت إلى باريس، كانت الرسالة تحمل معلومات مفصلة حول الحركة الثورية العالمية وخاصة حول الثورة الفرنسية، كانت الرسالة موجهة إلي السيد الأعظم لماسوني الشرق الأكبر في فرنسا حيث كان "الدوق دورليان" السيد الأعظم لماسوني فرنسا، استطاعت سيدة فرنسية أثناء اجتماعها بأحد زعماء الصهاينة الفرنسيين اختلاس تلك البروتوكولات والفرار بها، وصلت هذه الوثائق إلى العالم الروسي "سيرجي نيلوس" في عهد روسيا القيصرية الذي درسها بدقة يومئذ واستطاع أن يتنبأ بكثير من الأحداث الخطيرة التي وقعت بعد ذلك بسنوات مثل: سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية، إثارة حروب عالمية يخسر فيها الغالب والمغلوب، سقوط الملكيات في أوروبا، بعد ذلك انتقلت البروتوكولات إلى السرية التامة، وسارع معظم يهود العالم إلى التنصل منها، واستطاعوا بما لديهم من نفوذ إرغام الناس والحكومات على تجاهلها، ومعظم الكتب التي حذرت - وما زالت - تحذر من الخطر النوراني على شعوب العالم كان مصيرها الاختفاء من الأسواق، أو الإلقاء في زوايا النسيان والإهمال.

مما ذكر في البروتوكولات، وكفكرة عامة وبإيجاز شديد جدًا، أن السياسة يجب ألا تتفق مع الأخلاق في شيء - والتركيز على نشر الخمر والجنون والمجون المبكر - وضرورة نشر الفساد لإظهار فائدة حكم حازم يعيد إلى بناء الحياة الطبيعية نظامه، مطلوب عدم حدوث تغييرات إقليمية عقب الحروب ليتمكن اليهود من تقديم المساعدات الاقتصادية ليبقى الطرفان المتحاربان تحت رحمتهم مما يمكنهم من اختيار رؤساء يستطيعون التحكم بهم، يجب العمل على نشر الفقر بين الأمميين حيث لا معنى لحرية الكلمة وحقوق الإنسان أمام عامل أجير قد أحنى العمل ظهره، كما يجب أن تقام الجمهوريات على أسس ثورة العميان الفوضوية والاستبداد، ويجب الترويج لفكرة المساواة والحرية مع العلم أنها تناقض قوانين

الفطرة البشرية، مطلوب نشر المنافسات المادية وتحويل المجتمع لأناني غليظ القلب منحل الأخلاق يكافح من أجل الذهب واللذات، العمل على نشر التعصبات الدينية والقبلية – والتدخل في كل معاهدة ولو سرًا، إقناع الأمميين غير اليهود باستنزاف ثروة الأرض الزراعية إلى الصناعة التي تصب في أيدي اليهود وتشجيع العمال على حب الترف والفوضى، إرهاق كل دولة تقف في طريق مخططاتهم بحروب مع جيرانها وإلا فلابد من افتعال حرب عالمية، إن علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي لعلوم الصهيونيين - المناصب الخطيرة يعهد بها إلي القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم كي تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم حتى إذا عصوا أوامر اليهود توقعوا المحاكمة أو السجن، يعتقد الصهيونيون أن الشعوب تهتم من السياسة بالجانب المبهرج ولا تبحث عن بواطن الأمور ومن هنا يمكن تمرير ممثلي الشعب ممن لا يفكرون إلا في الملذات حتى يكونوا عاجزين عن مناقشة القوانين التي يجب أن لا تكشف تفاصيلها، ومما جاء في البروتوكولات، العمل على حماية الدمى التي تعين في المناصب الحساسة، واصطناع شرعية لكل ما يأمرون به في دولهم، العمل على السيطرة على دور النشر ومصادرة النشرات المعارضة على أنها تثير الرأي العام، كما يجب تمرير القوانين الصعبة ثم استدراج الرأي العام إلى مشكلة جديدة لصرف انتباههم عن القانون الذي تم تمريره مع تعقيد المسائل السياسية – إلهاء الجماهير الرعاع بأنواع شتى من الملاهي والألعاب والتحكم بنتائجها بما يخدم إثارة الرأي العام، وإلهاب حماسه وشغله عما يحاك له، تغيير صورة المفاهيم العامة كالحرية عن طريق طرحها والعمل بخلافها على مدى طويل من الزمن، تحطيم الفردية الإنسانية ونسفها بالكلية بالأفكار الرمزية لمبدأ الجماعة، خريجو الجامعات يتم استبعادهم فكريًا عن المسائل السياسية - العبقرية يجب القضاء عليها باستقطابها أو حربها حتى لا تصل لمراتب عليا، احتراف القانون يجعل الناس يشبون باردين وجامدين قساة عنيدين ويجعلهم ينظرون إلى الحياة نظرة غير إنسانية بل قانونية محضة، إعداد خطباء لإثارة إضرابات بين الشعب مما يسهل فرصة التعرف على المعارضين، يجب نزع تاج الشجاعة عن المجرم

السياسي بوضعه في مراتب اللصوص والقتلة المنبوذين حتى ينظر المجتمع بازدراء ومهانة إلى الجرائم السياسية كالجرائم العادية، حينما يحكم الصهيونيون العالم يجب أن يكون حكمهم مغايرًا تمامًا للفساد القائم في الأنظمة الأممية والتي هي أيضًا من صنع الصهيونيين حتى يشعر العالم بالفرق الكبير بين النظامين، ستتضاعف ثروات الصهيونيين من إعطاء القروض، وحينما يستقر النظام الصهيوني سيكون واضحًا لكل إنسان أن الحرية لا تقوم على التحلل والفساد، أوصى كبير حكماء البروتوكولات بأن يكون ملك الدولة الصهيونية حاكمًا حازمًا ولو كان عنيفًا، أما خطط الملك العاجلة والمستقبلية لن تكون معروفة إلا للحاكم والثلاثة الذين علموه.

هذا، وإن نسج خيوط المؤامرة على فرنسا يعود إلى "مائير روتشيلد" أيضًا، الذي اختطف فرنسا رهينة في أيدي اليهود، فبناء على تعليماته بالاحتكاك بالمركيز "ميرابو" في فرنسا الذي كان ينتمي إلي طبقة النبلاء، وكان يتمتع بنفوذ كبير في أوساط البلاط الملكي كما كان صديقًا حميمًا للدوق ابن عم الملك "لويس الرابع عشر"، فقد اختير الدوق "دورليان" ليكون الواجهة الظاهرة للثورة الفرنسية.

كان المركيز ميرابو مجردًا من الأخلاق، وكانت حياته مليئة بالفواحش، مما أدي إلي وقوعه في الديون الباهظة، فاتصل به المرابون عن طريق عملائهم، وهو الخطيب الفرنسي الشهير، وتحت ستار الصداقة والإعجاب بالمواهب الخطابية، كان هؤلاء العملاء يعرضون علي ميرابو مساعداتهم المالية لإنقاذه من مصاعبه المادية، وفي الواقع فإنهم كانوا يدبرون انغماسه أكثر فأكثر في هوة الرذيلة والإباحية، وانتهى به الأمر إلي أن أصبح مدينًا لهم بمبالغ طائلة، جعلته تحت رحمتهم وطوع إرادتهم، وتم تعريف ميرابو باليهودي الكبير "موسى مندلوهن"، الذي وضعه تحت رعايته، وتولي تعريفه في الوقت المناسب بامرأة حسناء اشتهرت بجمالها وسحرها، كانت اليهودية الحسناء متزوجة من رجل يدعي "هيرز"، ولكن هذا لم يزد ميرابو إلا ولعًا بها ورغبة فيها، لم يمض وقت طويل حتى أصبحت المرأة تقضي مع ميرابو من الوقت أكثر مما تقضي مع زوجها!

وهكذا أصبح ميرابو بلا حول ولا قوة، مربوطًا بالديون الباهظة ومفتونًا بسحر السيدة هيرز من جهة أخري، ابتلع الطعم والصنارة كما يقال!

كانت الخطوة التالية إدخال ميرابو إلي النورانية، وكان عليه أن يقسم أغلظ الأيمان للمحافظة علي السرية والطاعة تحت طائلة التهديد بالقتل، كانت الخطوة التي تلت هي زجه بمواقف معينة أخذت طريقها إلي الشيوع بصورة غامضة بهدف تحطيم الصورة المعنوية والاجتماعية لشخص ما بعد "الفضيحة أو التلطيخ أو التشهير"، كانت النتيجة تنكُّر زملاء ميرابوا وطبقته الاجتماعية له، مما أدى إلي امتلاء ميرابو بمشاعر الحقد، التي تحولت إلي رغبة في الانتقام بسبب اعتناقه مبادئ القضية الثورية.

كانت مهمة ميرابوا العمل علي إغراء الدوق "دورليان"، وإقناعه بأن يصبح القائد للثورة الفرنسية، وأنه سيُنصَّب بدلاً من الملك على العرش كحاكم ديمقراطي، وأن الهدف من الثورة هو تطهير السياسة والدين من الخرافات والطغيان، قام ميرابوا بتعريف الدوق دورليان وصديقه تاليران إلي وايزهاويت، الذي تولي بدوره مهمة تعريفهما بأسرار محافل الشرق الأكبر للماسونية، وشرع الدوق دورليان بإدخال طقوس الماسونية الجديدة (ماسونية الشرق الأكبر) إلي الماسونية الفرنسية الحرة.

بعد أن نجح ميرابو بمهمته، أخذ يدفع صديقه دورليان للانزلاق في الرذيلة والفجور أيضًا، حتى هوي إلي نفس الدرك الذي كان هو قد وصل إليه من قبل، ولم تمض أربع سنين، حتى أصبح دورليان مثقلاً بالديون، فلجأ إلى عمليات التهريب والتجارة المحرمة حتى يسترد بعض خسارته، إلا أن مغامراته كانت دائمًا تبوء بالفشل ويفتضح أمرها بطريقة غامضة، مما زاد موقفه سوءًا وحمله خسائر أفدح، بلغت ديونه عام ١٧٨٠م مبلغ ٨٠٠٠٠٠ ليرة فرنسية، وتدخَّل المرابون وراحوا يقدمون له الحلول والنصائح ويقدمون المعونة المادية، واستخدموا مهارتهم في المناورة، ما أدى إلى رهن جميع أملاكه من أراضي وقصور الخ، ووقع عقدًا لدائنيه بإدارة ما يخصه من أملاك لأجل أن يؤمِّنوا له

مبلغًا لسداد الديون، ويعطوه مبلغًا ثابتًا يمكّنه من العيش منه، وهو ما كان يتوق إليه في تلك الفترة فخبرته المالية محدودة ولم يكن يدري ما يدور حوله، على إثر ذلك عيَّن المرابون يهوديًا من أصل أسباني يأتمر بأمرهم للإشراف على أملاك الدوق دورليان، اسمه "شودرلوس دي لا كلوس"، اشتهر شودرلوس دي لا كلوس بكتاباته الجنسية الفاضحة وكان يدافع علنًا عن فسقه، لم يمض وقت حتى حوَّل شودرلوس دي لا كلوس قصر الدوق الذي عهد به إليه، إلي أضخم وأشهر دار للتهتك عرفها العالم حتى ذلك الوقت.

كان لشودرلوس دي لاكلوس، شريك يهودي أيضًا اسمه "كاغليوسترو بجوزيف بالسامو" من باليرمو، الذي حوَّل أحد منازل الدوق إلي مركز للطباعة، وراح يصدر منه المنشورات والإعلانات الثورية، كان الهدف من كل ذلك إثارة المشاعر لدي الجماهير والتمهيد للثورة، فتحولت ممتلكات الدوق دورليان إلي مركز لتدبير الثورة، وكان زعماء الثورة الفرنسية المنتظرون محاطين بهذا الجو الموبوء.

في تلك الفترة كانت شقيقة الملكة "ماري أنطوانيت" تشعر بالخطر، كتبت لشقيقتها الملكة عددًا من الرسائل تنبهها وتحذرها من أخطار ما كان يحدث خصوصًا تصرفات أصحاب المصارف العالميين، والدور الذي تلعبه محافل الماسونية الحرة الفرنسية، ولكن ماري أنطوانيت (١٧٥٥ - ١٧٩٣ م)، لم تستطع أن تصدق هذه الأشياء، وأن النورانيين في فرنسا يعملون تحت ستار الماسونية الخيرية لتدمير الدولة والكنيسة، ولقد بيَّن التاريخ مدي الخطأ الذي وقعت فيه ماري أنطوانيت، فهي برفضها المستمر أن تعير الاهتمام لتحذيرات أختها، أودت بنفسها وبزوجها إلي المقصلة، اعتقد معظم دارسي التاريخ، أن الملكة ماري أنطوانيت كانت امرأة لعوبًا انساقت وراء تيار المرح والملذات الذي كان يسود البلاط الفرنسي، كما تحدثوا عن قضايا غرامية كثيرة ومثيرة ينسبونها لها، والواقع هو أن صورة "ماري أنطوانيت" تلك، لم تكن إلا الصورة التي قامت برسمها الماسونية الحرة في فرنسا في نطاق حملة التشهير الواسعة التي شنوها عليها، وهو ما ساعد على ترسيخ هذه الصورة في عقول الجماهير، وجعل الشعب يطالب برأسها بعد

الثورة، إلا أن المؤرخون برهنوا بعد ذلك أن ما أشيع عن ماري أنطوانيت ما هو إلا افتراء وتلفيق، يؤكد ذلك الأنفة والهمة والشجاعة التي واجهت بها المقصلة، وهذه الصفات لا يمكن أن تكون لامرأة خليعة ماجنة.

هذا، وللتمادي في تلطيخ سمعة الملكة ماري أنطوانيت من قبل عملاء النورانيين، ابتكر وايزهاويت ومندلسوهن قضية "عقد الجوهر" الشهير:

تقول حكاية عقد الجوهر، إنه في الوقت الذي كانت الخزينة الفرنسية في أسوأ حالاتها، وكانت الحكومة الفرنسية تستجدي بارونات المال ليمدوها بالمزيد من القروض، اتجه عميل سري من عملاء رؤوس المؤامرة إلي جوهرجيّ البلاط الملكي، وزعم أن الملكة تطلب منه صنع عقد لها شبيه بالعقود الأسطورية، وفعلاً تم صنع العقد وبلغ ثمنه ربع مليون ليرة فرنسية، وأحضر الجواهرجي العقد وقدمه إلي الملكة، فما كان منها إلا أن تفاجأت ورفضت العقد بصورة قاطعة، ونفت علمها بأية رسالة منها بهذا الصدد، لكن الأقاصيص شاعت عن العقد في كل مكان وكما أراد لها المخططون، ودارت المطابع الشيطانية تقوم بمهامها لتطبع الآلاف تلو الآلاف من المنشورات التي تندد بالملكة، حتى أنهم زعموا بأن عشيقًا سريًا هو الذي أهداها هذا العقد إعجابًا بمفاتنها! ثم ابتكر مخططو التشهير فكرة أكثر خبثًا وشيطانية من الأولى لتلطيخ سمعة الملكة، كتبوا رسالة إلي الكاردينال "برنس دي روهان"، تحمل توقيعًا مزيفًا للملكة، وطلبوا من الكاردينال موافاة الملكة في قصر "الباليه رويال" في منتصف الليل للتباحث بشأن عقد الجوهر، وعهد المتآمرون إلي إحدى غانيات هذا القصر بالتنكر بزي الملكة ومقابلة الكاردينال ليلاً، وكان أن وصلت القضية إلي الصحف والمنشورات، وانتشرت الأهازيج الجنسية الرخيصة، التي تناولت الملكة والكاردينال "برنس دي روهان"، وللتاريخ فإن عقد الجوهر بعد الانتهاء من مهمته الشريرة استقر في بريطانيا عند يهودي يدعي "إلياسون".

لقد اثبت الباحثون وبما لا يدع مجالا للشك بأن النورانيين بقيادة عائلة روتشيلد عملوا على إيقاع فرنسا في ظروف اقتصادية صعبة، مما مكنهم من السيطرة

عليها اقتصاديًا وكبلوها بالديون عوضًا عن عبثهم الإعلامي وإفساد الناس وتضليلهم، من يرد أن يعرف المزيد عما فعله النورانيون في فرنسا حينما قرروا أن يسقطوا الملكية فيها، فليعد إلى كتاب "الكهنوت الشيطاني" للكاتبة الليدي "كوينزبورو"، وكذلك إلى كتاب "حياة نابليون" للكاتب البريطاني "السير والترسكوت".

بعد اندلاع الثورة الفرنسية استولى اليعاقبة علي السلطة، واليعاقبة هم أعضاء أكبر جمعية سياسية ثورية حكمت أثناء الثورة الفرنسية، واستمدّت هذه الجمعية اسمها من مقرها في باريس بالقرب من كنيسة سانت جيمس وكانت المنظمة الوطنية الوحيدة في البلاد التي تكونت لفترة قصيرة بعد بداية الثورة، وينحدر معظم أعضاء جمعية اليعاقبة من الطبقة الوسطى، جاء اليعاقبة إلى السلطة عام ١٧٩٣م، وبدأوا عهد الإرهاب؛ فأرسلوا مئات الفرنسيين إلى المقصلة، "انظر: المقصلة"، طلبوا من الدوق دورليان أن يوافق علي إعدام ابن عمه الملك، فوافق ظنًا منه بأنه سيكون الملك الدستوري علي فرنسا، وظلت القوي الخفية بعيدة عن أي لوم بخصوص إعدام العائلة الملكية، ولم يمض وقت قصير إلا وركز الإعلام على الدوق دورليان نفسه متهمًا، وسيق أيضًا إلى المقصلة بينما الحشود في شوارع باريس تصرخ وتندد بفضائحه.

اكتشف "ميرابو" بأنه لم يكن إلا وسيلة للقوى الشيطانية التي راحت تنتقم من الناس، ورغم فساده الخلقي إلا أنه لم يحتمل مشاهد العنف ضد الأبرياء التي كان اليعاقبة يوجهونها ضد كل من تشير إليه القوى الشيطانية الخفية، كان هدف ميرابو أن يتم تقليص سلطة الملك ويكون مجرد واجهة للحكم، وأن تدار البلاد بواسطة المستشارين وليس بإعدامه، لذلك كان قد حاول ميرابو تهريب الملك "لويس الرابع عشر" سرًا قبل إعدامه، وذلك بإخراجه من باريس ونقله إلى مقر قوات الجيش التي كان قادتها ما زالوا موالين للملك، عرف اليعاقبة بخطة ميرابو، فأمروا بتصفيته بدس السم له كحادث انتحار، لأنهم لم يجدوا الوقت الكافي لتلفيق تهم له ونشرها بواسطة الإعلام لجعل الجماهير تطالب بنفسها

بإعدامه، وقد ذكرت العبارة التالية في كتاب الكهنوت الشيطاني عن عقد الجوهر:
"ولم يكن لويس يجهل أن ميرابو مات مسمومًا".

بعد أن انتهى مخططو المؤامرة من مهمة إيقاع فرنسا في قبضتهم، أرسل "أنسليم مائير روتشيلد" ابنه "ناثان مائير" إلي انكلترا، بمهمة افتتاح فرع لمؤسسة روتشيلد في لندن، وتم توثيق اتصال المرابين العالميين، وبعد ذلك كان قرار أصحاب المصارف علي استعمال نابليون أداه، فقاموا بتدبير سلسلة الحروب النابليونية للإطاحة بعدد كبير آخر من العروش الأوروبية، ذلك ما فعله النورانيون الصهاينة في جانب مختصر مما فعلوه حقيقة في فرنسا، ماذا عن تفاصيل ما فعلوه في فرنسا وفي بقية دول العالم ماذا عن مخططاتهم التي فعلوها في تركيا، ماذا عن مخططاتهم التي تنتظر التنفيذ غدًا!

السلطان عبد الحميد الثاني:

لقد حكم السلطان عبد الحميد بسبب عدائه لأماني اليهود وأطماعهم على نفسه بالخلع، وعلى سمعته وتاريخ خلافته بالتشويش والتحريف والتجريح، والذي يؤكد ذلك وثيقة تاريخية بخط السلطان نفسه تبين سبب خلعه، وهي رسالة وجَّهها بعد خلعه إلى شيخ الطريقة الشاذلية الشيخ "محمود أبي الشامات" شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق، ومما قال السلطان في رسالته:
"بعد تقديم احترامي أعرض أني تلقيت كتابكم المؤرخ ٢٢ مارس في السنة الحالية (١٩٠٩) وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين، سيدي إني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهارًا، وأعرض أني ما زلت محتاجًا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٤٢م – ١٩١٨م

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم "جون تورك" وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة، إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرًا وَعَدوُا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا فرفضتُ هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: (إنكم لو دفعتم ملئ الدنيا ذهبًا - فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي)، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسوِّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضًا، وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سلانيك فقبلت

بهذا التكليف الأخير، هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة وقد كان ذلك ما كان ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام وبه أختم رسالتي هذه.

22أيلول 1329 هجري خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد"

- انتهت الرسالة -

تؤكد كل الدراسات بأن السلطان عبد الحميد الثاني عَامَلَ يهود الدولة العثمانية معاملة طيبة بالتساوي مع بقية رعايا السلطنة، ولقد توافق مع اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة العثمانية في ١٨٦٩م حدوث تطور في أنشطة رواد الحركة الصهيونية أمثال تيدور هرتزل، حيث تم عقد مؤتمر لكافة يهود العالم، وذلك في يوم ٢٩ يوليو عام ١٨٩٧، وحضر المؤتمر ٢٠٤ من المندوبين الذين مثلوا ١١٧ جمعية صهيونية، وقد مثل يهود روسيا وحدهم في المؤتمر ٧٠ مندوبًا.

كان من المفروض أن يُعقد المؤتمر الصهيوني في مدينة ميونخ بألمانيا، وبسبب معارضة يهود ألمانيا تم عقده في مدينة بازل السويسرية، وكان هذا المؤتمر هو أول مؤتمر يهودي عام يُعقد بعد أن دمر الرومان مدينة القدس في عام ١٣٥ ميلادية، وذلك بعد أن أخمد ثورة اليهود بزعامة "شمعون باركوخيا"، وسيشار إلى الحادثة في مكان لاحق في صفحات الكتاب.

انتُخِبَ هرتزل رئيسًا للمؤتمر واستهله بخطبة جاء فيها قوله: "إننا في هذا المؤتمر نريد أن نضع حجر الأساس للبيت الذي سيصبح الملجأ للشعب اليهودي، إن الصهيونية تعني العودة إلى القومية اليهودية قبل العودة إلى أرض إسرائيل".

وقد أسفر المؤتمر الصهيوني الأول، الذي استمر مدة ثلاثة أيام، عن الاتفاق على منهج عرف فيما بعد باسم منهج بازل، أما أهم فقرة من فقرات ذلك المنهج فكانت تقول: "إن الصهيونية تطمح إلى إقامة وطن قومي آمن للشعب اليهودي، وذلك في أرض إسرائيل"، وانتخب المؤتمرون هرتزل رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية، وكذلك جرى انتخاب لجنة تنفيذية موسعة ومكوَّنة من ١٥ عضوًا وأخرى مُصغَّرة تتألف من خمسة أعضاء، وبعد انتهاء المؤتمر أدلى هرتزل بالتصريح التالي:

"لو طُلِبَ إليَّ تلخيص ما حدث في مؤتمر بازل بجملة واحدة لقلت: إنني أستطيع أن أقول بإننا أقمنا الدولة اليهودية، وقد يكون قولي هذا مضحكًا للبعض، لكنني أستطيع أن أقول بإن الدولة الصهيونية قد تُقام خلال خمسة أعوام أو خمسين عامًا."

وقد باشر هرتزل نشاطه العملي الهادف إلى إقامة دولة يهودية بالاتصال بالبارون موريس دي هيرش أحد أثرياء اليهود الأوروبيين، وكان هذا البارون وعائلة روتشيلد يعتبرون من أوسع أغنياء العالم ثراء، وفعلاً بعد عشرين عامًا صدر وعد بلفور في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م، وبعد خمسين عامًا تم إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م. (انظر رسائل تيدور هرتزل للسلطان عبد الحميد الثاني في الوثائق في نهاية الكتاب)

هذا وقد عَقدتْ الحركة الصهيونية بعد مؤتمر بازل أربع مؤتمرات، فكان المؤتمر الثاني في ١٨٩٨م، والثالث في ١٩٠٠م، والرابع في1901م والخامس في ١٩٠٢م، وفي هذا المؤتمر الخامس تم استبعاد يوغندا من تأسيس وطن قومي لليهود وتم إقرار فلسطين لتكون ذلك الوطن، ثم تتابعت المؤتمرات الصهيونية.

وفي الواقع أنه عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم عام ١٨٧٦ م كانت أطماع الدول الأوروبية في الدولة العثمانية قد بلغت أوجها، لذا حاول اليهود التفاهم مع السلطان عبد الحميد الثاني حول توطين اليهود في فلسطين بل قد

أرادوا شراء فلسطين كلها من السلطان عبد الحميد مستغلين في ذلك ضعف الدولة العثمانية وديونها الكثيرة، فكان أول اتصال بين "هرتزل" رئيس الجمعية الصهيونية، والسلطان عبد الحميد بعد وساطة قام بها سفير النمسا في استانبول، في مايو ١٩٠١م، وعرض هرتزل على السلطان توطين اليهود في فلسطين، وفي المقابل سيقدم اليهود في الحال عدة ملايين من الليرات العثمانية الذهبية كهدية ضخمة للسلطان، وسيقرضون الخزينة العثمانية مبلغ مليوني ليرة أخرى، وأدرك السلطان أن هرتزل يقدم له رشوة من أجل تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وبمجرد تحقيقهم لأكثرية سكانية سيطالبون بالحكم الذاتي، مستندين إلى الدول الأوروبية، فأخرجه السلطان من حضرته بصورة عنيفة، ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته عن سبب عدم توقيعه على هذا القرار: "إننا نكون قد وقّعنا قرارًا بالموت على إخواننا في الدين".

وقال السلطان: "إن ديون الدولة ليست عارًا عليها، وإن بيت المقدس الشريف افتتحه سيدنا عمر رضي الله عنه، ولست مستعدًا أن أتحمل تاريخيًا وصمة بيع الأراضي المقدسة لليهود، وخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بالحفاظ عليها، ليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام".

ما كان من الجمعية الصهيونية إلا أن كررت المحاولة مرة أخرى، واختارت (آمانويل قره صو) المحامى اليهودي مؤسس المحفل الماسونى في مدينة سلانيك لمقابلة السلطان عبد الحميد، وعرض مطالبهم عليه، وبالفعل تم ذلك بتاريخ 17 سبتمبر ١٩٠١م مقدمًا إليه عريضة يلتمس فيها منح اليهود منطقة ذات إدارة ذاتية في فلسطين، وفي مقابل ذلك تقدم الجمعية الصهيونية قرضًا لمدة غير محدودة قيمته ٢٠ مليون ليرة ذهبية دون فائدة إلى خزينة الدولة، و(٥) ملايين ليرة ذهبية إلى خزينة السلطان الخاصة كهدية، إلا أن السلطان عبد الحميد فور سماعه فحوى العريضة استشاط غضبًا، وطرد (قره صو)، وقال "إنكم لو دفعتم ملئ الدنيا ذهبًا فلن أقبل، إن أرض فلسطين ليست ملكي إنما هي ملك الأمة

الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يباع، وربما إذا تفتت إمبراطوريتى يومًا يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل".

وقد نقل "تيولنسكي" وهو صديق للسلطان عبد الحميد وهيرتزل في نفس الوقت نص جواب السلطان عبد الحميد التالي: "إذا كان هيرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه ألا يتابع أبدًا هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدة من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمه وغذَّاها فيما بعد بدمه أيضًا، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين وقُتِلَ رجالنا الواحد بعد الآخر لأن أحدًا لم يقبل التسليم، وفضَّلوا أن يموتوا في ساحة القتال، الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما لشعبي، لا أستطيع أبدًا أن أعطي أحدًا أي جزء منها".

وقد حاول هرتزل طمأنة السلطان عبد الحميد الثاني فأرسل رسالة إلى السلطان في عام ١٩٠٢م يوضح فيها أن اليهود سيجلبون الخير للدولة العثمانية من خلال أموالهم الوفيرة لا الشر كما يتوقع السلطان ولكن السلطان عبد الحميد رفض بشدة مطالب هرتزل.

وفي عام ١٩٠٢ تقدّم اليهود بعرضٍ مغرٍ للسلطان عبد الحميد يتعهّد بموجبه أثرياء اليهود بوفاء جميع ديون الدولة العثمانية وبناء أسطول لحمايتها، وتقديم قرض بـ (٣٥) مليون ليرة ذهبية لخزينة الدولة العثمانية المنهَكة، إلا أن السلطان رفض العروض، وهكذا أدت مواقف عبد الحميد المتصلبة أمام المشروع الصهيوني إلى جعلهم يوقنون باستحالة تحقيقه طالما بقى على سدة الحكم وقد عبَّر هرتزل عن ذلك بقوله، "لقد فقدنا الأمل في تحقيق آمال اليهود في فلسطين، فإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة طالما ظل عبد الحميد قائمًا في الحكم مستمرًا فيه".

وهكذا ظلت العلاقات بين اليهود والسلطان عبد الحميد حتى تم خلع السلطان عبد

الحميد الثاني عام ١٩٠٩م، ومن ثم كان خلع عبد الحميد، وتمزيق حكمه هدفًا وغاية لا يمكن الرجوع عنها، وبناء على ذلك قام اليهود بدعم جمعية الاتحاد والترقي الماسونية المعادية للسلطان عبد الحميد حتى تمكن الاتحاديون من الإطاحة به في انقلاب ١٩٠٩م وفتحت أبواب فلسطين أمام اليهود.

يعتبر تيدور هرتزل أول من أبرم العقد الصهيوني الاستراتيجي مع الدول المتنفذة في العالم، وصار هذا العقد بعد تأسيس إسرائيل شريعة فيما بعد للكيان الصهيوني الذي زرع في الوطن العربي، فقد كان تيدور هرتزل أرستقراطيًا أو كما ذكرنا في غير مكان، وكان كل همه أن يرضي أغنياء أوروبا من اليهود وأن يحوز على صداقتهم، ورأس المال كما نعلم ليس له وطن أو انتماء فأضحت فكرة إنشاء الدولة اليهودية عند أغنياء اليهود في أوروبا ضرورة لخدمة رأس المال الذي يبحث دائمًا عن الربح، لذا نجد أن زعماء الصهيونية وعلى رأسهم هرتزل لم يكونوا معنيين أن تكون فلسطين هي الوطن وإن كانت هي إحدى الخيارات، وأكبر إثبات على ذلك أن أسبابًا كثيرة حتى قبل قيام دولة إسرائيل وأسبابًا حديثة تُدعم فكرتنا بأن الصهيونية لا يهمها أين تقام الدولة وأين تكون.

المشاريع الاستيطانية خارج فلسطين:

١- مشروع توطين اليهود في "سورينام" تحت الاحتلال الهولندي عام ١٦٢٥م، وافق عليه المجلس الهولندي، وتم توطين اليهود في منطقة "كوراساو" في جيب شبه مستقل، إلا أن السكان الأصليين والسود ثاروا وقضوا عليه.

٢- مشروع مستعمرة كايين: في عام ١٦٥٩م، منحت شركة الهند الغربية (الفرنسية) تصريحًا "لديفيد ناسي" لتأسيس مستعمرة يهودية في "كايين" في المنطقة المحصورة بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، وقد دعا لهذا المشروع الجمعيات البروتستانتية بمختلف ألوانها وأشكالها.

٣- مشروع جبل آرارات عام ١٨٢٦م: في عام ١٨١٢م عينت الدبلوماسية الأمريكية المفكر الأمريكي اليهودي الأصل "موردكاي نواه" (١٧٨٥ – ١٨٥١م) قنصلاً لها في تونس، بهدف تخليص الأسرى الأمريكان الذين اعتقلهم القراصنة ولتقوية مكانة الولايات المتحدة في الشرق، أثناء عمله في تونس حدث أن أمريكا قد باعت في الجزائر إحدى الغنائم التي أخذتها من بريطانيا فاحتجَّت بريطانيا لدى الحكومة الأمريكية، وقالت إن هذا لا يليق أن يكون تصرف أمة مسيحية، فردَّ موردكاي نواه بأن أمريكا ليست أمة مسيحية وأن ما تقوله انجلترا غير مقبول أو بهذا المعنى (كون موردكاي يهودي فهذا يبيِّن مدى النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة في ذلك الوقت).

تم استدعاء موردكاي نواه إلى أمريكا بسبب مخالفات مالية، وبعد عودته عمل في الصحافة، وعمل في ميناء نيويورك، وعمل ضابطًا في ميليشيا نيويورك، وكتب عدة مقالات ومسرحيات ولاقى بعضها نجاحًا كبيرًا، كما أيَّد ضم المكسيك إلى الولايات المتحدة، وانتقد الدعوة إلى إلغاء الرقيق.

كان موردكاي نواه يهودي من أصل سفاردي، وكان أبوه بائعًا جوالاً فقيرًا، مات أبوه وهو طفل، علَّم نفسه بنفسه عن طريق القراءة، وتعلم حرفة النحت وطلاء المعادن بالنيكل، وتم تعيينه في وزارة المالية الأمريكية، في سنة ١٨٠٠م صار يعمل بالصحافة وأصبح محررًا في إحدى الصحف المشهورة فكتب سلسلة مقالات حرض فيها على محاربة انجلترا.

ارتبط اسم موردكاي نواه بمشروع استيطاني يهودي أطلق عليه "جبل آرارات" ويقام في منطقة "جراند أيلاند" في منطقة شلالات نياجرا، قدم التماسًا لمجلس الولاية للموافقة على المشروع، وأرسل نداؤه ليهود العالم لأتباعه إلى جبل آرارات معتبرًا نفسه سيدنا نوح عليه السلام ليتبعه البقية الصالحة من البشر، طبعا كان موردكاي نواه يعرف الأولويات حيث قدم التماسه لمجلس الولاية قبل أن يتوجه إلى يهود العالم كونه يعلم أن المستقبل للمسيحية، وأن عودة اليهود

ستكون ليست روحية وإنما للعمل والإنتاج، لكن دعوته لم تجد صدى لدى الجماهير اليهودية.

كان موردكاي متناقضًا، ولم يتوقف نشاطه، في عام ١٨٤٠م ألقى محاضرة وطالب بإنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكتب للرئيس الأمريكي جون آدمز (١٧٩٧ – ١٨٠١م) رسالة عبَّر فيها عن أمله أن يعود اليهود إلى فلسطين، إلا أنه اشتم من رسالته أنها معادية لليهود، فقال مصححًا إنه يتمنى أن يرى اليهود مواطنين في أي مكان من العالم، وهي أيضًا معادية للصهيونية.

٤ - مشروع استيطان العريش: وكان يهدف أن يتمكن اليهود من إقامة رأس جسر لهم في سيناء المصرية ثم يتحولون إلى فلسطين.

مشروع استيطان قبرص:

في عام ١٨٧٨م احتلت بريطانيا جزيرة قبرص، وبقيت الجزيرة من الناحية الاسمية تابعة للخلافة العثمانية، في تلك الأيام بدأت التطلعات لاستيطان قبرص من قِبَل اليهود، فقد نشرت جريدة "جويش كرونيكل" التي تصدر في بريطانيا مقالاً يمدح موقع قبرص وبيَّنت المزايا التي تتمتع بها الجزيرة من حيث ملاءمتها للاستيطان وكمحمية للبريطانيين تخدم مصالح الإمبراطورية مستقبلاً.

تم طرح الفكرة خلال المؤتمر الصهيوني الثالث عام ١٨٩٩م فقوبلت بمعارضة شديدة على أساس أن الانشغال بالتوطين في قبرص سيعرقل استيطان فلسطين، ولم يجرؤ هرتزل على تأييد المشروع خوفًا من جمعية أحباء صهيون التي كانت متحمسة لاستيطان فلسطين، أحد زعماء الحركة الصهيونية من المتحمسين لمشروع استيطان قبرص كان اسمه "ديفيز تريتش" من الصهاينة التوطينيين هو أمريكي ألماني الأصل، لم يثن تريتش المعارضة التي حظي بها مشروع قبرص فقام بنفسه بمساع لدى الكثيرين، وألَّف لجنة في برلين لتحقيق المشروع عام

١٨٩٩م، كان من بين أعضائها "ديفيد ولفسون" الذي رأس الحركة الصهيونية بعد موت هرتزل فيما بعد.

زار تربيتش قبرص وقابل المندوب السامي البريطاني للجزيرة، وتعرَّف على مزايا جزيرة قبرص، وشرح للمندوب السامي مزايا استيطان اليهود لقبرص بالنسبة لبريطانيا في شرق البحر الأبيض المتوسط، في عام ١٩٠٠م نجح تربيتش بالتعاون مع جمعية الاستعمار اليهودي وصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار، في تهجير نحو ٢٥٠ من اليهود الرومانيين والروس إلى قبرص، إلا أن المقام لم يطل بهؤلاء فلم يعجبهم الحال ووجدوا أنفسهم كالعبيد في مكان منعزل، حيث شعروا بالضيق والضجر لعدم تجانسهم فعادوا إلى بلادهم، على إثر ذلك تعرض تربيتش لنقد شديد من قِبَل الكثيرين بل إن الصهاينة اتهموه بالتغرير بالمهاجرين وخداعهم بمغامرة غير محسوبة.

لكن فكرة استيطان جزيرة قبرص لم تمت كليًا، فكان طرحها ثانية في هذه المرة من قِبل هرتزل عام ١٩٠١م، فحينما سرت شائعات بأن بريطانيا ستتنازل لألمانيا عن جزيرة قبرص مقابل أن تتنازل ألمانيا لبريطانيا عن بعض المستعمرات في شرق أفريقيا، سارع هرتزل بالاتصال بالألمان وعرض عليهم استيطان الجزيرة من قِبل المهاجرين اليهود، وأغراهم بفائدة استيطان اليهود لقبرص الذي سيؤَّمن للألمان موقع هام في شرق البحر الأبيض المتوسط سيضمن لهم الحفاظ على نفوذهم وسيؤَّمنون الطرق إلى أماكن تواجدهم في المنطقة، وأكد هرتزل للحكومة الألمانية بأن المستوطنين اليهود في قبرص سيحاربون بجانب ألمانيا إذا ما طُلب منهم ذلك.

ولما تبين أن بريطانيا لن تتخلى عن قبرص عدل هرتزل عن الفكرة، وعاد يغازل بريطانيا حيث كان قد أبقى الباب مواربًا معها، فالتقى جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني آنذاك عام ١٩٠٢م، وعرض عليه فكرة استيطان قبرص فرفض تشمبرلين الفكرة كون سكان قبرص من المسيحيين الأرثوذكس، ولم يرد أن يثير اليونان ذات الارتباط القوي مع سكان قبرص الأرثوذكس أو روسيا

الأرثوذكسية أيضًا، وأن حكومته لا تحبذ إحلال اليهود مكان السكان المسيحيين، هنا تبدو نظرة تشمبرلين العنصرية، فهو يريد أن ينقل فقراء اليهود إلى خارج انجلترا للتخلص منهم، وفي نفس الوقت يريد أن يجد شعبًا آخر أقل أهمية من اليهود لاستبدالهم به.

لما أعاد الصهاينة الاتصال بالمندوب السامي البريطاني في قبرص، وراحوا يطالبون مرة أخرى استيطان قبرص، رفضت بريطانيا الفكرة وكل ما استعدت أن توافق عليه كان السماح لليهود بشراء مساحات محددة من الأرض في قبرص وبشكل فردي وبموافقة السكان المحليين، رفضت الحركة الصهيونية تلك الصيغة وتم صرف الأنظار عن مشروع استيطان جزيرة قبرص.

٥- مشروع استيطان مدين: كان "بول فريدمان" محتلاً بالفكر الاسترجاعي بعد العلمنة حيث تحول المشروع الديني إلى مشروع استيطاني علماني أي تجنيد المادة البشرية لتوظيفها لتحقيق المصلحة، لم يعدم رواد الحركة الصهيونية فرصة أو وسيلة للبحث عن وطن لإسكان يهود اليديشية فيه في مسعى لحل ما أطلق عليه المسألة اليهودية إلا وقاموا بها، من هؤلاء كان بول فريدمان ١٨٤٠ – ١٩٠٠م الرحالة الصهيوني الذي سعى إلى البحث عن بلاد ضئيلة السكان كوطن لليهود، فوقع نظره على إقليم "مدين"، تلك المنطقة الواقعة في شمال غرب شبه الجزيرة العربية المتاخمة لمدينة العقبة الأردنية.

اتصل "بول فريدمان" بالزعماء اليهود والحاخامات والشخصيات البارزة لدعم المشروع. وتقرَّب إلى جمعية قديما والجمعية الأنجلو يهودية وجمعية الأليانس في باريس وفيينا، وحاول إغراء البارون دي هيرش لتمويل المشروع، وسعى لإيجاد مظلة دولية للمشروع، فالتقى لورد كرومر في لندن سنة ١٨٨٩م الذي أخبره أن الحكومة البريطانية لن تعطل هكذا مشروع.

في عام ١٨٩٠م زار فريدمان مصر لدراسة أوضاع أرض مدين والحصول على موافقة الحكومة المصرية على المشروع، حيث كانت منطقة مدين تحت الإشراف

المصري في ذلك الوقت، في عام ١٨٩١م نشر كتيبًا بعنوان "أرض مدين" وصف فيه أحوال الإقليم، وزعم أن المنطقة كانت في الماضي جزءًا من المملكة اليهودية القديمة، وفي العام نفسه شرع فريدمان في تحويل المشروع إلى حقيقة عملية، فقام بتجنيد عدد ٥٠ من اليهود الروس من جماعة حركة أحباء صهيون ليكونوا نواة لجيش المستوطنين، واشترى سفينة بحرية صغيرة سماها "إسرائيل"، في نوفمبر من نفس العام ١٨٩٠م، أبحر مع المجندين وطاقم السفينة التسعة متوجهًا إلى أرض مدين.

ما كاد فريدمان يصل بحملته إلى مدين حتى اندلعت المشاكل بين أعضاء الرحلة وحصلت حركة تمرد بسبب صرامة فريدمان وقوانينه، ووجدت جثة أحد المجندين ملقاة في الصحراء، كان فريدمان يحب زيه العسكري ويضع التاج الذهبي على رأسه، وكان يتباهى بالأوسمة والنياشين على صدره، ويتخيل نفسه كأحد ملوك بني إسرائيل في مدين، فصل المتمردين من أعضاء حملته فهاموا على وجوههم في الصحراء وماتوا بعضهم، ولم يبق في النهاية من أعضاء الحملة سوى تسعة فقط، وما زاد الأمر سوء هو أن روسيا رفعت دعوى على فريدمان لمحاكمته في قنصلية ألمانيا بالقاهرة متهمة إياه بالتسبب في موت أحد رعاياها.

حاول فريدمان تجنيد بعض اليهود المصريين وبعض السودانيين ليقفوا بجانبه ففشل، ولما انتبهت تركيا على ما يحدث في ممتلكاتها أصابتها الريبة من هذا المشروع، فجردت حملة عسكرية وطردت فريدمان ومن تبقى معه من أفراد الحملة، ولم تستطع بريطانيا إثناء تركيا عن فعل ذلك، وعاد فريدمان إلى برلين عام ١٨٩٥م.

٦- مشروع الأرجنتين: بدأ مشروع استيطان الأرجنتين في عام ١٨٩١م، وذلك بشراء حوالي ٧٥٠ ألف هكتار من أراضي الأرجنتين، وتم جلب ما يقرب من ٣٥٠٠ أسرة يهودية للاستيطان، وتم إمدادهم بما يلزم للزراعة من أدوات وآلات، وتم بناء أول مستوطنة يهودية بتمويل البارون اليهودي "دي هيرش"، وأوكلت المهمة للكولونيل جولد سميد للإشراف على مستعمرات الأرجنتين، وكان

جولد سميد متحفظًا على الاستيطان في الأرجنتين، وكان يعتبر تلك الممارسة ما هي إلا انتظار وتمهيد لاستيطان فعلي في فلسطين.

حتى عقد الثلاثينات كانت المستوطنات الزراعية اليهودية بالأرجنتين مزدهرة، فقد بلغ عدد المستوطنين اليهود ما يقارب العشرين ألفًا، وبلغت مساحة الأرض المزروعة ما يقرب من خمسمائة ألف هكتار، في السنوات التي تلت ساءت الأحوال لقلة الأراضي المنتظر إصلاحها للزراعة وتراكم الديون على المستوطنين، ما أدى إلى ترك المستوطنين لمزارعهم والاتجاه للعيش في المدن الكبيرة.

٧- مشروع استيطان ليبيا: اهتمت ايطاليا باستعمار ليبيا في إطار مساعيها للحصول على شيء من أملاك الخلافة العثمانية، وذلك منذ بداية القرن العشرين بعد أن احتلت فرنسا تونس والجزائر في عامي ١٨٣٠ و ١٨٨١م، واحتلت بريطانيا مصر في العام ١٨٨٢م، في عام ١٩٠٤ قدم هرتزل اقتراحًا إلى ملك إيطاليا لتوطين اليهود في طرابلس الغرب تحت حكم ذاتي يهودي بإشراف إيطالي في ظل القوانين الإيطالية، وعدد هرتزل للملك الإيطالي مزايا الوطن اليهودي في ليبيا بالنسبة لايطاليا أو كما هي عادته حينما كان يتملق الزعماء الأوروبيين حينما تكون هناك مصلحة للصهيونية، لم يوافق ملك ايطاليا على الفكرة خوفًا من معارضة بريطانيا وفرنسا وتركيا، وافتضاح أمر الأطماع الإيطالية في ليبيا، وقال إن طرابلس هي وطن للآخرين.

في عام ١٩٠٦م بعد وفاة هرتزل جددت الصهيونية محاولتها لاستيطان ليبيا، فأرسلت لجنة لتقصي الوضع في طرابلس، وعادت اللجنة بانطباعات إيجابية، وأعلمت الزعيم الصهيوني "إسرائيل زانجويل" باستعداد السلطات العثمانية قبول فكرة إنشاء وطن يهودي في منطقة "الجبل الأخضر" في ولاية "برقة"، أما بريطانيا فقد باركت الفكرة أيضًا بعد أن أوعزت لقنصلها في تونس بأن يقترح على زانجويل إنشاء وطن لليهود في منطقة الجبل الأخضر.

كانت بريطانيا من وراء اقتراحها تهدف إلى مقاومة التدخل الإيطالي المحتمل في ليبيا باستخدام المستوطنين اليهود كمادة بشرية لخدمة مصالحها الإمبراطورية، وكان الوالي العثماني يريد تحسين الأحوال الاقتصادية في ولايته باعتبار أن المشروع سيكون مربحًا، وسيحوز على تأييد القوى الكبرى بريطانيا وتركيا، كما أن الاستيطان اليهودي في برقة لن يكون صعبًا نظرًا لقلة السكان في ولاية برقة، فيصير جلب أعداد كبيرة من اليهود إلى المنطقة المنشودة ويتم دفع السكان الأصليين إلى الصحراء عوضًا على أن موقع ولاية برقة على البحر الأبيض المتوسط يعطيها ميزة لليهود المهاجرين للوصل إليها بسهولة عن طريق البحر، كما أن تلك المنطقة كانت في الماضي مأوى لعدد لا بأس به من اليهود في زمن الإسكندر المقدوني والبطالمة، وهذه المزايا تجعل استيطان ليبيا أفضل من المشاريع الأخرى مثل مشروع أوغندا وجزيرة قبرص.

لإغراء الدولة العثمانية عرضت المنظمة الصهيونية على تركيا في حال تنفيذ المشروع، إنشاء ميناء على البحر، ومد خط للسكة الحديدية، وحصول اليهود على الجنسية العثمانية، وجعل اليهود يدفعون الرسوم والضرائب بشكل جماعي للدولة العثمانية على أن تعمل كافة المؤسسات تحت إشراف الدولة العثمانية أيضًا.

في عام ١٩٠٨م أوفدت المنظمة الصهيونية بعثة لدراسة الأوضاع في برقة، وأمضت ثلاثة أسابيع وقامت بعمل أبحاث مكثفة شملت كل شيء في المنطقة، وركزت على الموارد المائية وحاجة المنطقة من شق الطرق، واحتمال عمل مشاريع زراعية متطورة، لاقت اللجنة ترحيبًا من والي برقة العثماني، الذي أمر بتسهيل كافة الأمور التي تسعى إليها اللجنة، أوجزت اللجنة نتيجة الزيارة للمنطقة في تقرير سمته الكتاب الأزرق، الذي تضمن عددًا من المقترحات العملية، مثل ضرورة شق الطرق وربط المنطقة بالمدن الليبية الأخرى، وأن يكون الاستيطان منظمًا، وأن يكون في البداية بأعداد قليلة من اليهود وعلى دفعات، وعدم المطالبة في البداية بحكم ذاتي.

لم تأت الرياح كما اشتهت السفن الصهيونية في ذلك الوقت، فقد حدث انقلاب على الحكم في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٩م وأطيح بالسلطان عبد الحميد الثاني، وانشغلت دولة بني عثمان بالصراعات والمشاكل الداخلية الحادة، فانشغلت عن مشروع الاستيطان اليهودي، وما عقَّد الأمور أكثر كان إقدام إيطاليا على احتلال ليبيا عام ١٩١١م، فكانت نهاية مشروع استيطان ليبيا.

٨- مشروع استيطان أنجولا: بعد استحالة تنفيذ مشروع الاستيطان اليهودي في ليبيا، راحت المنظمة الصهيونية تبحث عن مناطق أخرى لتوطين اليهود فيها تحت رعاية إحدى الدول الكبرى، في عام ١٩١٢م اقترح "إسرائيل زانجويل" على الحكومة البرتغالية توطين اليهود الروس وأوروبا الشرقية في "أنجولا" بأفريقيا، وافق البرلمان البرتغالي بالإجماع على الفكرة، لأن هذا سيجعل المستعمرة أكثر استقرارًا، وسيزيد من العنصر الأبيض فيها، لكن البرلمان البرتغالي ربط الموافقة على الاستيطان بأن يأتي اليهود إلى المستعمرة فرادى وليس جماعات، واشترط أن تظل الحكومة البرتغالية مسئولة في كل الأحوال، في عام ١٩١٣م قامت المنظمة الصهيونية بإرسال بعثة إلى أنجولا للتعرف على أحوال المستعمرة، ومدى صلاحيتها لاستيطان اليهود، وأعدَّت اللجنة تقريرًا كانت ستعرضه على المؤتمر الصهيوني العام الذي كان سيعقد في سويسرا عام ١٩١٤م، لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى في ذلك العام أدى إلى تأجيل المؤتمر، وأدت التداعيات على المستوى العالمي إلى نسيان مشروع استيطان انجولا.

٩- مشروع موزمبيق: لما كانت قد تعثرت مشاريع الاستيطان اليهودية، وبقي الصهاينة منشغلين في البحث عن أي مشروع ولو مرحلي يحقق الهدف، فقد بقي هرتزل يدور ويبحث، وقاده تفكيره أن يتصل برئيس وزراء النمسا في عام ١٩٠٣م عن طريق أحد أصدقائه بهدف التوسط لدى الحكومة البرتغالية للسماح بتوطين اليهود في موزمبيق.

وعلى الأثر اجتمع هرتزل مع السفير البرتغالي في فيينا وعرض على السفير، أن يقوم اليهود بإنشاء شركة استثمارية يهودية تساعد البرتغال على حل مشاكلها الاقتصادية، وتقدم الشركة معونة مالية سنوية للبرتغال مقابل حصولها على حق استثمار أراضي في موزمبيق وتوطين أعداد من يهود الشرق، ورغم أن البرتغال كانت تواجه أزمة اقتصادية حادة، إلا أنها رفضت الفكرة بسبب الروابط الوثيقة بين المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية المنافس الكبير في ميدان الاستعمار، قال هرتزل في مذكراته بإنه كان على استعداد لو حصل على مستعمرة موزمبيق أن يتنازل عنها لبريطانيا بدون ثمن مقابل أن تمنح بريطانيا لليهود كل شبه جزيرة سيناء المصرية وتصلها بمياه النيل صيفًا وشتاء، وربما مع سيناء قبرص أيضًا، وفي المستقبل استيطان فلسطين.

١٠-مشروع الخليج العربي (البحرين والإحساء): في عام ١٩١٧م وجَّه طبيب يهودي فرنسي اسمه "إم ل رششتاين" رسالة إلى الحكومة البريطانية، اقترح فيها إقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي تشمل البحرين ومنطقة الأحساء من السعودية، ولتنفيذ الفكرة يجب تجنيد جيش قوامه ثلاثين ألف جندي من شباب اليهود الروس، وأن تقوم بتدريب هذا الجيش دول الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا، وأن تمده بالمستشارين وبالأسلحة وبالعتاد اللازم، وأن يكون إعداد هذا الجيش سريًا حتى أن أفراده لا يعلمون بالمهمة التي ستوكل إليه وتكون قاعدته في البحرين، وفي الوقت المناسب يقوم بالانقضاض على المنطقة المنشودة ويمسك بها بقوة، وتكون نواة لقيام الدولة اليهودية التي يجب أن يديرها مجموعة من الحاخامات اليهود.

وقال الطبيب روششتاين أيضًا في رسالته للحكومة البريطانية، سيكون الجيش طوع أوامر بريطانيا في قمع التمردات المحلية التي قد تحدث ضد بريطانيا، وسيتصدى للهجمات التي قد تقوم بها ألمانيا وتركيا في المنطقة، وسيدخل الحرب العالمية بجانب بريطانيا ضد أعدائها، وسيكون أثر ايجابي للدولة اليهودية بجعل كل يهود العالم موالين لبريطانيا، وسيجعل يهود تركيا وألمانيا بالذات عملاء

وجواسيس لبريطانيا خلال الحرب وسيؤثر هذا على جبهة الأعداء، وأما تكاليف إقامة هذا الجيش فستعتبر دينًا على الدولة اليهودية على أن تسدده فور إعلانها، كما يتعهد هو شخصيًا بذلك.

رفضت بريطانيا المشروع بعد أن أحيل إلى وزير المستعمرات البريطاني لدراسته وخلص إلى أسباب الرفض: أن العرب لن يقبلوا الدولة اليهودية، وسيثير هذا متاعب لبريطانيا، وأن بريطانيا لا ترى أن المنطقة صالحة لإقامة دولة يهودية، هذا وأن بريطانيا كانت مرتبطة بمعاهدة مع البحرين وقعت سنة ١٩٢٠م وكانت البحرين تحت النفوذ البريطاني، وأن الإحساء كانت تحت سيطرة "عبد العزيز بن سعود" أمير نجد منذ سنة ١٩١٣م، وأن بريطانيا أيضًا كانت قد وقَّعت معاهدة تحالف مع ابن سعود كان بمقتضاها أن تحمي بريطانيا بلاده في حال تعرضها لأي هجوم، كان لبريطانيا أسبابًا أخرى أكثر عمقًا، من نظرتها الإمبراطورية البعيدة، رأت أن تطورات الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها قد أبعد الخطر الألماني عن غزو المنطقة واستعمارها، فلا تهديد ألماني بعد أن هزمت ألمانيا وركعت للمنتصرين حسب معاهدة فرساي، ثم إن الخلافة العثمانية لم تعد قائمة ولا خطر منها، وأن وجود شركاء روس وفرنسيين يقومون على تدريب الجيش اليهودي ربما يعقد الأمور في وجه بريطانيا ويدفع في اتجاه التدخلات الخارجية، ويشرع في قيام منافسة استعمارية من فرنسا وروسيا في المنطقة، ولكي تحسم بريطانيا الأمر، عملت على إصدار وعد بلفور لأكثر من اعتبار.

١١-مشروع الكونغو: في إطار تعثر مشاريع الاستيطان اليهودية في قبرص والعريش وشرق أفريقيا وغيرها، قام هرتزل عام ١٩٠٣م بالاتصال بالمستثمر اليهودي البلجيكي فرانتز فيليبسون الذي كان يملك احتكارات كبيرة في الكنغو بأفريقيا، وذلك لأجل استمالته والتوسط لدى ملك بلجيكا، وكعادة هرتزل مع الدول والزعماء، عرض أن تدفع المنظمة الصهيونية مبلغًا من المال سنويًا للحكومة البلجيكية للتخفيف من أعبائها المالية، مقابل سماح بلجيكا بتوطين عدد من اليهود في الكنغو واستثمار خيرات المنطقة في إطار حكم ذاتي لليهود، رفض

فيليبسون الفكرة ولم يقم بالوساطة، رغم أنه من المؤيدين لفكرة توطين اليهود بسبب خوفه من قدوم منافسة من مستثمرين جدد قد تؤثر على مصالحه الواسعة.

١٢-مشروع استيطان شرق أفريقيا: أهم المشاريع التي لم يؤخذ بها كان مشروع شرق أفريقيا أو مشروع أوغندا، الذي كان يهدف إلى إنشاء محمية إنجليزية يهودية اسمًا وفعلاً تابعة للإمبراطورية البريطانية، وهو المشروع الذي قدَّمته بريطانيا لليهود عام ١٩٠٣م لكي يقيموا عليه وطنًا لهم على هضبة مساحتها ١٨ ألف ميل مربع في كينيا الآن، وليس أوغندا كما أصبح شائعًا في المطبوعات، حيث أن هرتزل كان قد فهم خطأ من وزير المستعمرات البريطاني حينما كان الأخير يغريه بمشروع شرق أفريقيا قائلاً عن المنطقة، بإن خط السكة الحديدية الذي يعبر أوغندا إلى المنطقة المقصودة (كينيا) قد اكتمل، فظن هرتزل بأن مشروع توطين اليهود في شرق أفريقيا سيكون في أوغندا لهذا تم الالتباس، إذن كان المشروع سينفذ في كينيا وليس في أوغندا.

يعتبر "جوزيف تشمبرلين" رجل السياسة البريطاني، المنظر الحقيقي لمشروع شرق أفريقيا، فقد قيل بإن تشمبرلين هو الذي اختار لنفسه منصب وزير المستعمرات في بريطانيا وظل في هذا المنصب من ١٨٩٥ لغاية ١٩٠٣م.

كان تشمبرلين واسع الأفق ولديه مقدرة على الابتكار، فعمل على تحسين صورة الإمبراطورية البريطانية في الخارج، وجعلها مقبولة أكثر لدى الآخرين وأخرجها من عزلتها، شق الطرق في المستعمرات واهتم بالزراعة على أسس حديثة، وشجع على مد خطوط السكك الحديدية، واهتم بزيادة العنصر البشري الغربي، كان تشمبرلين عنصري جدًا، فقد كان يؤمن بتفوق العرق لأنه يحدد السمات الأساسية للحضارات، كان يؤمن أن تكون السياسة الخارجية للإمبراطورية البريطانية موضوعة على أساس عرقي وعلمي دقيق لكي تستند عليها التحالفات، كانت رؤيته للعرق هرمية، على القمة يكون "الانجلو- سكسون" ثم

يليهم التيتون أو أهل شمال ايطاليا فرنسيين وألمان وغيرهم من شعوب أوروبا الغربية، واعتبر اليهود في قاع الهرم الأوروبي.

كان تشمبرلين في هذا يعتبر أن هناك أجناسًا دنيئة من البشر وتوجد أجناس أقل دناءة منها، الهنود جنس دنيء لكنهم أقل دناءة من السود، لذلك يمكن تطوير السود بإدخال بينهم عنصر لجنس وسيط، فيستفيد الجميع، تستفيد بريطانيا ويستفيد الهندي ويستفيد الأسود، ومن واقع الخبرة والممارسة الميدانية رأى تشمبرلين أن استخدام الإنسان الأبيض في العمل بالمستعمرات لم يكن مجديًا أو لائقًا، كما أن استخدام الإنسان الأبيض من غير البريطانيين ليس محل ثقة، ولذلك تم استخدام الهنود كمادة بشرية، لهذا رأى تشمبرلين أن اليهود هم المادة البشرية المناسبة لأجل تحقيق أهداف كثيرة، عوضًا عن أن اليهود هم عنصر أوروبي لكنهم لا يسببون مشاكل كما المستوطنون البيض، ويمكن في هذه الحالة أن يحل اليهود محل الهنود في العمل في محمية شرق أفريقيا.

عام ١٩٠٢م دعي هرتزل لكي يدلي بشهادته أمام اللجنة البريطانية للغرباء التي أنشئت للنظر في مشكلة هجرة يهود اليديشية الذين يأتون لبريطانيا، فاقترح تحويل المهاجرين إلى وطن يهودي مباشرة معترف به، وترك هذا أثرًا عميقًا لدى سامعيه، ولما دعي هرتزل لمقابلة تشمبرلين استمع الأخير لوجهة نظره، وأدرك إمكان توظيف اليهود كمادة بشرية، ووعد بالنظر في اقتراح هرتزل بجعل قبرص أو العريش وطنًا لليهود، في عام ١٩٠٢م زار تشمبرلين أفريقيا ثم استقبل هرتزل مرة أخرى وعرض عليه مستعمرة شرق أفريقيا لكي تكون مستوطن مستقل لليهود، ووافق على ذلك لورد بلفور الذي كان يرأس الوزارة البريطانية في تلك الأيام.

سعت بريطانيا إلى مشروع أوغندا في الوقت الذي نشط فيه الاستعمار الألماني والإيطالي، وفي وقت ازدادت فيه هجرة يهود اليديشية إلى بريطانيا، فوجدت بريطانيا الفرصة لتحويل المهاجرين اليهود إلى مادة استيطانية توطنهم في محمية تقوم بحماية الموقع الاستراتيجي في شرق أفريقيا، فبريطانيا كانت قد

فضلت أن يكون الوطن اليهودي في شرق أفريقيا كون بريطانيا في ذلك الوقت متحالفة مع الخلافة العثمانية وتود الحفاظ على أملاك العثمانيين ضد الزحف الروسي، ولم تكن فكرة تقسيم دولة الخلافة الإسلامية قد طرحت بعد.

كان البريطانيون سيضعون حاكمًا يهوديًا على المحمية، ويطلقون عليها اسم فلسطين الجديدة، وفعلاً تم تأسيس شركة لتطوير المنطقة بموافقة الحكومة البريطانية، ووافق تيدور هرتزل على المشروع، وأيده ماكس نوردو الذي سمى المشروع بأنه "ملجأ ليلة واحدة" وهو يقصد بأنه سيكون الطريق إلى فلسطين وطن اليهود الحقيقي، تحمس اليهود المهاجرين من روسيا للمشروع فأيدوه بقوة بعكس زعمائهم الذين عارضوه، وأيد المشروع المستوطنون الصهاينة في فلسطين، واليهود الأرثوذوكس الذين رأوا أن استيطان فلسطين شيء عبثي، عارض المشروع حاييم وايزمان وعارضه المندوبون الروس، وسمي الصهاينة الذين عارضوا مشروع شرق أفريقيا بصهاينة جبل صهيون، وحينما طرح المشروع للتصويت، تمت الموافقة عليه بالأغلبية ٢٩٥ صوتًا موافقًا مقابل ١٧٨ صوتًا معارضًا و١٤٣ صوتًا ممتنعًا عن التصويت، أحدثت نتيجة التصويت تصدعًا في الحركة الصهيونية واستشاط الرافضين غضبًا، وحاول أحد الشباب المتحمسين اغتيال ماكس نوردو "الشرق أفريقي" كون الأخير كان أحد أصحاب الحجة في فكرة الموافقة على المشروع.

على إثر نتيجة التصويت الايجابية على التصويت، تشكلت لجنة اشتملت على بريطاني مسيحي، ومهندس روسي، وصحفي سويسري، وذهبت اللجنة إلى شرق أفريقيا لدراسة الوضع، فاستقبلها المستوطنون البيض من أصل انجليزي فضلّلوا اللجنة، وزودوها بمعلومات خاطئة وأخذوا اللجنة إلى أراضي قاحلة غير المنطقة المقصودة، وعادت اللجنة وقدمت تقريرها السلبي، وليس هذا فقط بل إن المستوطنين البيض في شرق أفريقيا أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، فعوضًا عن أنهم ضلّلوا اللجنة إلا أن هذا لم يكتفوا به بل كتبوا العرائض والاحتجاجات إلى الحكومة البريطانية، ورفضوا أن يأتي اليهود إلى مناطقهم بحجة أن قدوم

المهاجرين اليهود سيكون له آثار سلبية على القبائل الأفريقية، وأن تلك الأرض قد مدوا عليها خط سكة حديد، ولا يودون أن يغيروا سكينة تلك المنطقة بقدوم أناس آخرين.

في المؤتمر الصهيوني السابع عام ١٩٠٥م تم رفض كافة مشاريع توطين اليهود، ويبدو أن عود الحركة الصهيونية قد اشتد وازداد نفوذها وارتفع سقف أهدافها، وصار الحديث عن تفتيت دولة بني عثمان، التي صار يطلق عليها رجل أوروبا المريض تمهيدًا لاغتصاب فلسطين، على إثر رفض مشروع شرق أفريقيا انشق "إسرائيل زانجويل" وأربعين مندوبًا آخرين، وأسَّسوا الحركة الصهيونية الإقليمية.

١٣-مشاريع أخرى من رموز الحركة الصهيونية ماكس بودنهايمر (١٨٦٥-١٩٤٠ م)، هو زعيم صهيوني ألماني درس القانون في جامعة شتوتجارت وأصبح محاميًا، وبعد أن أسَّس مع ديفيد ولفسون جمعية صهيونية بعد صدور كتاب هرتزل دولة اليهود، صار من أشد مؤيدي هرتزل، وهو الذي كان عضوًا في رئاسة المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧)، وساهم في صياغة الأهداف الصهيونية الواردة في برنامج بازل، عمل نائبًا للرئيس في المؤتمرات الصهيونية التالية، رافق بودنهايمر هرتزل في لقاءاته مع القيصر الألماني، وزار فلسطين واسطنبول، وشارك في تأسيس المنظمة الصهيونية الألمانية وتولَّى رئاستها بين عامي ١٨٩٧ و١٩١٠م، وأصبح رئيسًا للصندوق القومي اليهودي في الفترة من ١٩٠٧ وحتى ١٩١٤ م، خلال الحرب العالمية الأولى أسَّس لجنة تحرير اليهود الروس في برلين.

في عام ١٨٩١ م نشر بودنهايمر كتيبًا دعا فيه إلى إقامة مستعمرات يهودية في سوريا وفلسطين، فقد وجَّه نداءه إلى أثرياء اليهود لإنشاء شركة تعمل على توطين يهود شرق أوروبا في منطقة سهل البقاع في شمال لبنان، وكان يعلم أهمية تلك المنطقة بالنسبة لبريطانيا، فطلب الموافقة والدعم منها مقابل أن يحافظ اليهود على المصالح البريطانية، ويحمي المستوطنون مواصلات بريطانيا

التي تؤدي إلى مستعمراتها في الهند، لكن بريطانيا لم تهتم بالفكرة، تجنبًا من خلق مشاكل لا مبرر لها مع الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٩٣، قام الصهيوني "هنري دي أفيجدور" بمحاولة أخرى لشراء مساحات من الأراضي في منطقة حوران لكي تكون قاعدة للاستيطان اليهودي في المنطقة، إلا أن المحاولة أيضًا فشلت بسبب معارضة الدولة العثمانية، ولأن المشروع لا يحظى برعاية دولة كبرى، كانت هناك محاولات عدة لشراء الأراضي في شرق الأردن، واتخاذها قاعدة للاستيطان، ومن ثم القيام بشن الهجمات على السكان وطردهم، إلا أن كل هذه المحاولات لم تحظ بموافقة الدولة العثمانية، وأمر السلطان بطرد الجمعيات اليهودية تخوفًا من حدوث مشاكل لا أحد يعلم بها.

خلال عامي ١٩٠٣ و١٩٠٤م حاول هرتزل إقناع السلطان العثماني من خلال مستشاره، بالموافقة على السماح بتوطين عدد من اليهود في جنوب العراق، مقابل أن تعمل المنظمة الصهيونية على حل المشاكل المالية التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية.

وفي عام ١٩٠٥، واصل ديفيز ترييتش محاولاته الاستيطانية، بعد فشل مشروعي قبرص والعريش، فطلب من السلطان العثماني السماح لليهود بالاستيطان في القطاع الساحلي من منطقة أضنه الذي يتاخم الشاطئ السوري فرفض السلطان المشروع، لكن تتريبتش لم ييأس فراح يفكر في استيطان جزيرة رودس لموقعها على الطريق البحري بين شرق أوروبا وفلسطين، ووجود حوالي خمسة آلاف يهودي في تلك الجزيرة من مجموع سكانها الذي كان يبلغ آنذاك حوالي ٣٠ ألف نسمة، غير أن هذه الفكرة قد رُفِضَتْ أيضًا.

١٤-نشطت جماعات صهيونية إقليمية، منها جماعة قامت في ألمانيا للاستيطان في الجزء البرتغالي من أنجولا عام ١٩٣١م، إلا أن الحكومة البرتغالية رفضته.

١٥- في مؤتمر إفيان ١٩٣٨م، قدم اقتراح لتوطين ١٠٠ ألف يهودي في جمهورية الدومينكان، إلا أن الصهاينة رفضوه.

١٦ -رفض الصهاينة أيضًا مشروعًا آخر في بيرو بيجان السوفييتية.

١٧ -كان للنازيين في ألمانيا والفاشيين في إيطاليا مشاريعهم التوطينية أيضًا لليهود خارج فلسطين.

١٨ - وفي عام ١٧٩٠م، اقترح كاتب بولندي توطين اليهود في أوكرانيا التابعة لبولندا.

١٩ - وفي عام ١٨١٥م، قدَّم القس البولندي "شاتوفسكي" اقتراحًا بأن يُوطَّن اليهود في جيب يهودي صغير في آسيا الصغرى يكون قاعدة للدولة الروسية ضد الخلافة العثمانية.

٢٠ -كان هناك مشاريع استيطان أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها لم تتعدى الأحلام، لأن أمريكا نفسها هي مجتمع المهاجرين ولا ضرورة لأن تمنح اليهود أرضًا خاصة بهم.

وهذا يؤكد بأن مشروع الدولة اليهودية كان وليد ظروف البعث القومي في أوروبا، وأن مؤيديه من اليهود كانوا قلة من الفقراء في روسيا أوروبا الشرقية واستطاع هرتزل أن يزاوج بين القلة اليهودية الغنية في أوروبا التي تبحث عن الربح والاقتصاد وبين متاهة الفقراء الذين كانوا يرزحون تحت نير التفرقة العنصرية.

نستنتج مما سبق أن مشروع هرتزل لا يختلف كثيرًا عن مشروع الحروب الصليبية حينما استغل السياسيون في أوروبا الإيمان بالمسيحية ووظفوه لخدمة السياسة والحرب، وهذا يدل على أن هرتزل حينما كان سيقبل بأي مكان لكي ينشيء عليه الدولة اليهودية إنما كان يغازل البؤساء من اليهود الشرقيين لكي ينجز ما يسعى إليه الأقلية من أغنياء اليهود في أوروبا الذين يصادقهم في رياضته الأرستقراطية، وسعيًا للمجد الشخصي وقد كان له في النهاية ما أراد.

لقد كان هرتزل حذقا وذكيا حينما سعى مع أحد القساوسة في وضع حدود للدولة اليهودية كشعار معلن هو "فلسطين داود وسليمان" بمعنى إسرائيل الكبرى.

لو تعمقنا في الأمر أكثر نجد أن إسرائيل بخلاف كل الدول التي تسعى إلى الاستقلال، تأسست باقتصاد قوي وما زالت فورة الاقتصاد فيها تفيض كون أموال كثيرة تذهب إليها حتى ساعدها الفائض الاقتصادي أن تصبح دولة ذرية في أقل من مرور عشرين عامًا على استقلالها، وأن اقتصادها أكبر من كل الدول المحيطة بها وسكانها لا يتجاوزون الستة ملايين حتى الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، لذا فإنها دائمًا في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة، فنجد أنها تستورد العمالة اليدوية من دول كثيرة مثل تركيا، باكستان، الهند، سريلانكا، كوريا وغيرها، بالإضافة إلى عشرات الألوف من الفلسطينيين في حين أن نسبة البطالة في الدول المحيطة بإسرائيل لا تقل عن ٢٠ بالمائة.

هذا يبين بأن إسرائيل هي مجموعة من رؤوس الأموال الاحتكارية الاستعمارية الاستيطانية العسكرية، يُضلل بها الغوغائيون من فقراء اليهود ويستثمرها أغنياؤهم من الأوروبيين، بالإضافة إلى توظيفها لخدمة القوى العالمية المتنفذة حليفة أصحاب المصالح من أغنياء اليهود.

ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال تركيا "رجل أوروبا المريض" في بداية القرن العشرين لو أنها قبلت بما كان يعرضه عليها هرتزل من أموال، ومساعدات، وسداد ديون للدول الغربية على السلطنة، وماذا لو قبلت تركيا أن ترعى أمن واستقرار الدولة اليهودية في فلسطين! ألم يعرض هرتزل على السلطان عبد الحميد بأن يحل كل مشاكل السلطنة المادية بشرط أن يظل سرًا بينهما حتى لا تعلم به الدول الأوروبية الدائنة للسلطنة العثمانية! وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الخيانة دائمًا وأبدًا هي نهج بني صهيون على مدى التاريخ فحليفهم الدائم هي مصالحهم وليذهب غيرهم من يكون إلى الجحيم.

لو أن تركيا قبلت العرض لربما كان في الإمكان أن تبقى تركيا سلطنة وخلافة وربما لساعدها اليهود ضد أعدائها، رحم الله السلطان عبد الحميد لإيمانه ولنظرته البعيدة، ذلك السلطان الذي رفض عرض هرتزل فتم التآمر عليه وعلى السلطنة فتم تمزيق صرح الخلافة العثمانية.

يقول الرأي الآخر بالنسبة لموقف السلطان عبد الحميد الثاني، بإن هناك نوع من الصواب لو قلنا بإن السلطان عبد الحميد في أواخر أيام الدولة العثمانية كانت سياسته ونظام حكمه يشبهان حال النظام العربي في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين حيث أن الضعف والوهن كان باديًا على الدولة العثمانية التي تتطلع إليها عيون الإمبراطوريات لكي تتقاسمها أو على الأقل أن تحصل منها على ميزات ونفوذ مقابل الحماية أو العون الاقتصادي.

لذا قد يكون من المُبالغ فيه أن تسجل كل تلك المحامد للسلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض عروض "تيدور هرتزل" الاقتصادية مقابل أن يصدر السلطان فرمانًا صريحًا بالسماح لليهود بالهجرة الكثيفة إلى فلسطين، فلو لم تكن شكوكنا في محلها فلماذا أصلاً استقبل السلطان هرتزل أكثر من مرة، ولماذا سمح له بأن يعرض عليه القروض والمساعدات إلا إذا كان الاختلاف على العروض من ناحية حجمها ونوعها، وربما الشك في ظن السلطان بأن هرتزل يمثل إحدى الدول الأوروبية الطامعة في تفتيت الدولة العثمانية على مراحل أي أن يكون الاستيطان اليهودي في فلسطين أحد تلك المراحل.

وهنا لا بد أن نشير بشيء من الحذر إلى بعض الأمور التي تجعل المرء ليس من السهولة أن يقف بجانب روح ما قاله السلطان عبد الحميد في ردوده على هرتزل، لأن طبيعة الاحتلال العثماني للبلاد العربية كان سيؤدي إلى شيء من هذه النتائج الكارثية أو كما حدث لفلسطين وتوج في عام ١٩٤٨م.

يقول الدكتور "إبراهيم علوش" في مقال له في "موقع الصوت العربي الحر" تحت عنوان، الاحتلال العثماني والحنين للتخلف، يقول: "تصاعدت مؤخرًا ظاهرة

الحنين المفتعل للعثمانيين في بعض الأوساط، والتفجع على انقضاء قرون التجمد الحضاري خارج التاريخ، والنواح على أطلال التخلف الذي زرعوه في أرضنا على مدى قرون"، وهنا يشير الدكتور علوش إلى مواقف تركيا من العرب وفلسطين والبلاد العربية بصفة عامة، وأن الاحتلال العثماني هو ما وضع العرب في أسوأ الأحوال، وما جلب عليهم الاستعمار والتفتيت.

العثمانيون مثلاً، لم يتركوا أثرًا حضاريًا واحدًا في البلاد العربية طيلة مدة احتلالهم، ولم يقدموا إنجازًا علميًا أو فنيًا أو أدبيًا، وحينما احتل الأتراك العثمانيون بلاد العرب لم يكن الفارق الحضاري بين العرب والأوروبيين كبيرًا كما أصبح في أواخر الحكم العثماني، ورغم كل ما قيل عن رفض السلطان فإن الأخير أصبح صديقًا لهرتزل وكان يفاوضه ويستقبله ويستمع إليه ويناقش عروضه وما يمكن أن يقدم من مال أو قروض أو يتحدث باسم قوى غربية معينة، بمعنى لو أن السلطان وجد عرضًا سخيًا من هرتزل يمكن به شفاء الدولة فربما لكان هناك ما يمكن أن يوافق عليه، وربما أن السلطان أيضًا قد شعر بأن نهاية حكمه قادمة لا محالة، وأن لا جدوى مما يمكن أن يقدمه أغنياء اليهود المتحالفين مع بريطانيا للسلطنة لأن الوقت قد فات على إمكان نهوض الخلافة والتغلب على أمراضها المستعصية، لذا أراد السلطان أن يسجل موقفًا يخلده في التاريخ.

هذا، ومن ناحية أخرى، إن الإشارة القاطعة بأن السلطان عبد الحميد الثاني كان رافضًا للهجرة اليهودية إلى فلسطين ولم يسمح بها فهناك شك في هذا القول، لأن الهجرة اليهودية الأولى (١٨٨٢م) كانت قد تمَّت في أيام حكمه وأن ثلاث مستعمرات يهودية بُنيت في عهده هي "ريشون ليتسيون، وبتاح تكفا، وزخرون يعقوب"، وإبَّان حكم السلطان عبد الحميد أيضًا، قام وجهاء القدس برفع عريضة لرئيس الوزارة العثمانية، طالبوا فيها بوقف هجرة اليهود الروس إلى فلسطين (عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث – الطبعة التاسعة).

هذا، وحينما نجد أن القوات البريطانية في عام ١٨٠١م قد عاونت العثمانيين على إخراج الفرنسيين من مصر، وبعد ذلك خلال نهوض "محمد علي" والي مصر

بتأسيس الدولة العربية الحديثة، نجد أن بريطانيا وفرنسا ودول أوروبية أخرى في عام ١٨٢٧م قد ساعدت العثمانيين على طرد جيش محمد علي من سوريا، وعملت على تدمير أسطوله البحري في موقعة نفارينو، علمًا بأن بريطانيا بعد ذلك هي من أتت أصلاً بوعد بلفور، من هذه الوقفة البسيطة يمكن تخيل علاقات الدول التي تحكمها المصالح وحجم الربح وما يمكن تحقيقه، السياسة كما نعلم لا تحكمها المباديء ولو وضعت الأيديولوجيات كيافطات فإنها تكون لإفساح مجال للساسة والقادة كي يناوروا.

هذا، ويجب أن نتذكر أن إسرائيل كانت مشروعًا غربيًا بصفة عامة، ذلك نظرًا لوزن ونفوذ أغنياء اليهود في الدول الغربية وخصوصًا في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ثم في غيرهما من الدول، لقد رأينا أن الصهاينة قد أسسوا دولتهم بالتحالف مع بريطانيا أولاً، ثم بنوا قوتهم العسكرية بواسطة فرنسا، وبعد ذلك ربطوا اقتصادهم بالولايات المتحدة خلف الأطلسي، وبقوا هكذا كما هو دأبهم يتجاذبون المصالح، ويتنقلون من هذه الدولة بالولاء إليها ثم يتركونها إلى غيرها لكي يظلوا مستمرين في مشروعهم الاستيطاني، لكن موجات التاريخ لا تثبت على هيئة واحدة ولا تظل على وتيرة واحدة.